كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

البعث

وقصص أخرى

20

د. نبيل فاروق

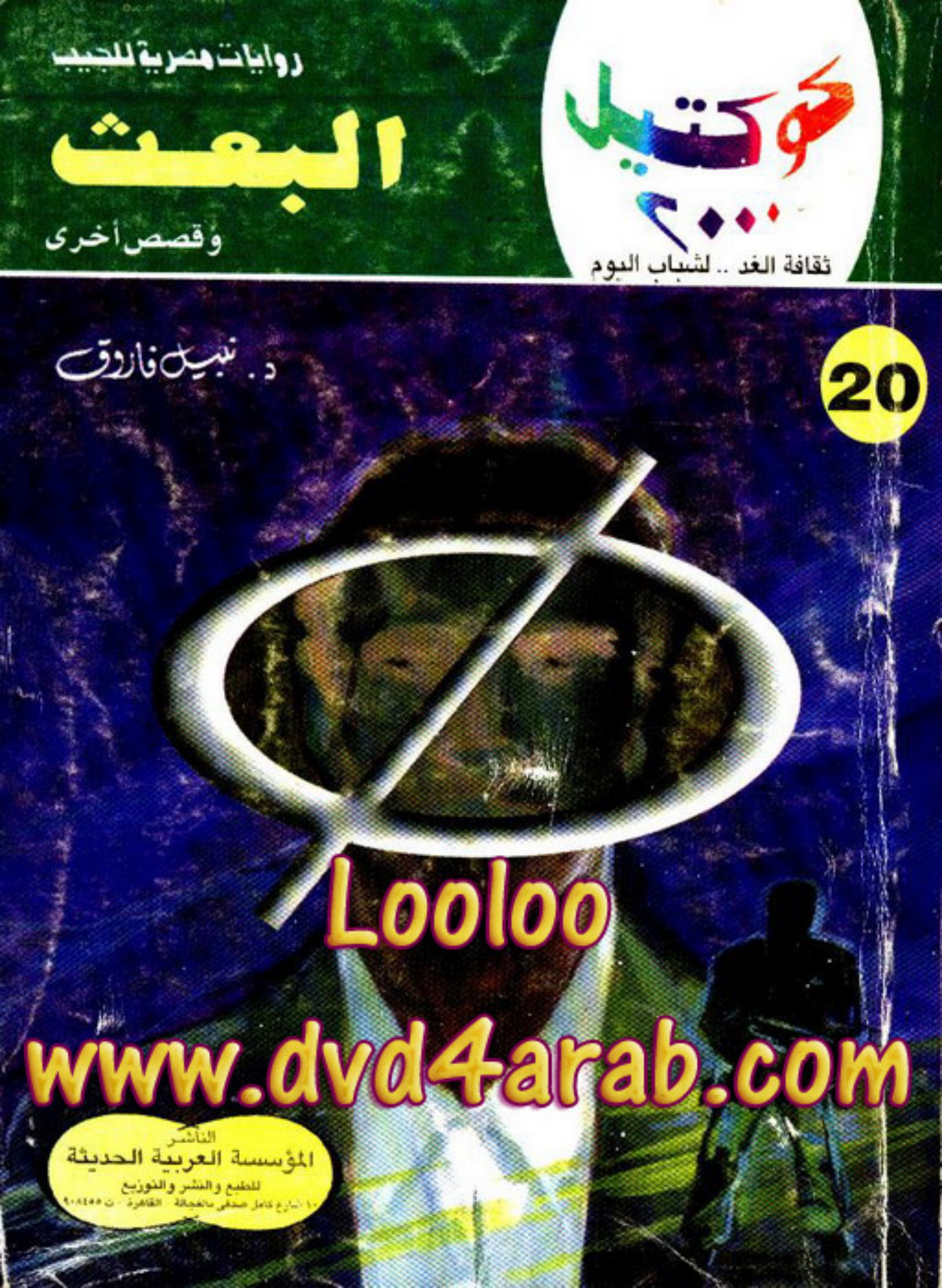

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

بالـدم ..

(قصة قصيرة)

دوى الانفجار ، فى الضفة الشرقية لقناة (السويس) ، وتردَّد صداه فى الضفة الغربية ، فدوت معه هتافات الجنود :

- الله أكبر ..

وانتفض جسد ضابط الكتيبة ، وهو يلوِّح بقبضته ، قائلًا فى حماس :

- الأولاد نجحوا .. نسفوا مخزن الذخيرة .

كان هذا فى أوج حرب الاستنزاف ، والحماس يملأ قلوب الجميع ، فارتفعت رءوس جنود الكتيبة فى لهفة ، وعيونهم تمسح سطح القناة ، حتى لمحوا ذلك الزورق ، الذى يعبرها عائدًا إليهم ، فهتف بعضهم :

- إنهم يعودون .

وكما لو كانت هذه إشارة البدء، انطلقت عشرات المدافع من الضفة الغربية، لتنفجر قنابلها على الضفة الشرقية؛ لحماية رجالنا، وتغطية انسحابهم، وتأمين عبورهم، حتى بلغوا الضفة الغربية للقناة، فاستقبلهم رفاقهم استقبال الأبطال ..

كانوا أربعة من جنود الكوماندوز المصريين، وبصحبتهم أسيران إسرائيليان، أحدهما مصاب بجرح بالغ، وحلته العسكرية الإسرائيلية غارقة بدمه ..

وفى توتر، سألهم الضابط :

ـ أين (حامد) ؟

أجابه الجندى (حسن) فى اقتضاب :

ـ استشهد .

هبط الحزن فجأة على قلوب الجميع، وترقرق الدمع فى عيون بعضهم، والضابط يسأل فى خفوت حزين :

ـ وأين جثته ؟

أجابه (حسن) :

ـ لم تعد هناك جثة .

كاد يكتفى بهذا القول، لولا أن أطل التساؤل فى عيون الجميع، فأضاف فى حزم مقتضب :

ـ لقد نسف نفسه مع المخزن .

اختنقت حلوقهم بالحزن، وقال الضابط :

ـ قدّموا تقريركم، وانقلوا الأسيرين إلى الحجز، واتصلوا بالقيادة لتحديد الموقف .

تم تنفيذ الأوامر فى دقائق معدودة، ونُقِل الأسير المصاب إلى الوحدة الطبية لإسعافه، وبذل الطبيب هناك قصارى جهده، قبل أن يقول للضابط وجنوده :

ـ لا فائدة .. الإسرائيلى سيموت حتمًا، ما لم ننقل له لترًا من الدم، من فصيلة (ا) موجب، ولا توجد لدينا أية دماء هنا .

تعالى صياح بعض الجنود :

ـ دعوه يموت .. فليدفع ثمن ما أصاب الشهيد (حامد) .

إلا أن الجندى (حسن) اخترق الصفوف، وهو يقول فى حزم :

ـ أنا أمنحه دمى .

لم يكد ينطقها، حتى بدا وكأن قنبلة من الصمت قد انفجرت فى المكان، فأحالته إلى مقبرة ساكنة، والكل يحدقون فى وجه (حسن) بشىء من الذهول والاستنكار، قبل أن يردّد الضابط فى خفوت، وكأنه لا يصدّق ما سمعه :

ـ تمنحه دمك ؟!

كرّر (حسن) فى حزم أكثر :

ـ أنا أمنحه دمى .. فصيلة دمى (ا) موجبة .. وسأمنحه لترًا من دمى .

ساد الصمت لحظات أخرى، ثم تفجّرت ثورة الغضب فى الحناجر :

ـ أنت !! أنت تمنحه دمك يا (حسن) !!.

ـ تمنح الإسرائيلى دمك ؟.

ـ هل جننت يا رجل ؟..
ـ لست أصدّق نفسى ..
ـ (حسن) هذا مخبول بحق ..
ولم ينبس (حسن) ببنت شفة ...
لقد ظلّ صامتًا ، والحزم يكسو وجهه كله ، على الرغم من ثورة رفاقه ، حتى سأله الطبيب :
ـ أأنت مستعد لهذا حقًا ؟!
ولم يجب (حسن) ، وإنما مدّ ذراعه للطبيب ، معلنًا موافقته وعزمه ، فلم يكن من الرجل إلا أن اصطحبه إلى داخل العيادة ، وغرس إبرة نقل الدم فى ذراعه ، وبدأ ينقل لترًا من دمه إلى عروق الإسرائيلى ..
ولم تستغرق العملية سوى ساعة واحدة ، انتعش بعدها جسد الإسرائيلى ، وتجاوز مرحلة الخطر ، فى حين بدا (حسن) شاحبًا ممتقعًا ، فربّت الطبيب على كتفه ، وهو يقول :
ـ انتهى الأمر يا بطل .. تناول كوبين كبيرين من عصير الفاكهة ، وستصبح على ما يرام بإذن الله ..
ولكن الطبيب لم يكن مصيبًا فى قوله هذا ..
الأمر لم ينته أبدًا ..
لقد بدأ ..
فمنذ غادر (حسن) العيادة ، أشاح عنه الجميع بوجوههم ..
زملاء خيمته ..
زملاء الكتيبة ..

وحتى الضابط والصول وضباط الصف ...
كلهم قرّروا أن ينبذوه وأن يتجاهلوه تمامًا ..
لا أحد يصافحه ، أو يشاركه طعامه ، أو حتى يلقى عليه تحية الصباح ...
الكل قاطعوه تمامًا ، عقابًا له على منحه دمه للإسرائيلى ..
والعجيب أنه احتمل كل هذا فى صبر عجيب ..
احتمله وكأنه كان يتوقّعه ..
لقد راح يأكل وحده ، ويعمل وحده ، فى استسلام عجيب ، دون أن يشكو أو يتبرّم ، وكأن هذا قدره ، الذى يتحتّم عليه قبوله صاغرًا ، ودون مقاومة ..
ولكن هذا لم يرق لهم ..
وفى عناد ، تمادوا فى عقابه ، فصاروا يستفزّونه ، ويشاغبونه ، ويتحرشون به فى كل مناسبة ، إلا أنه تجاهل هذا تمامًا ، وواصل معاملتهم بمنتهى الهدوء والأدب والصبر ..
واستفزّهم هذا الهدوء أكثر وأكثر ، حتى أنهم استغلّوا وصول أحد القادة ، للتفتيش على الكتيبة ، فانتخبوا من بينهم واحدًا ، تقدّم للقائد قائلًا :
ـ سيادة القائد .. الكتيبة لديها مطلب واحد ، اجتمعت كلها على الرغبة فى تنفيذه ، وتتقدّم إليك برجاء لتنفيذ رغبتهم .
سأله القائد فى قلق :
ـ أى مطلب هذا ؟
أجابه مندوب الكتيبة :
ـ لا نريد الجندى (حسن) بين صفوفنا .

أدهش هذا المطلب القائد ، ولكنه وعد مندوب الكتيبة ببحث الأمر ، واجتمع مع الضابط ، وسأله عن هذا ، فشرح له الضابط الموقف كله ، وختمه قائلًا :

ـ ولم يحتمل الجنود بالطبع فكرة أن يتبرَّع (حسن) بلتر من دمه لجندى إسرائيلى ، فى نفس الوقت الذى فقدوا فيه (حامد) ، الذى ضحى بحياته لتنجح العملية .

أومأ القائد برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى .

ثم استغرق فى التفكير لحظات ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـ اجمع الكتيبة كلها .. أريد أن أنفذ الأمر بطريقتى ..

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كانت كتيبة الصاعقة كلها تقف أمام القائد ، وتؤدى له التحية ، وبعد الإجراءات العسكرية المعتادة ، شدَّ القائد قامته ، وواجه الرجال جميعًا بقوله :

ـ لقد تلقيت اليوم مطلبًا جماعيًا من الكتيبة ، بخصوص نقل أحد أفرادها إلى كتيبة أخرى ، وقبل تنفيذ هذا النقل ، أريد من هذا الفرد أن يواجه الجميع ، ويشرح مبررات فعله ... الجندى (حسن) .. تقدَّم الصفوف .

أطاع (حسن) الأمر ، وتقدَّم ثلاث خطوات إلى الأمام ، واتخذ وقفة عسكرية صارمة ، فواجهه القائد بنظرة نارية ، وهو يسأله :

ـ لماذا تبرَّعت للإسرائيلى بدمك يا (حسن) ؟

صمت (حسن) لحظة ، ثم أجاب بصوت قوى :

ـ من أجل الوطن يا فندم .

سرت همهمة غاضبة مستنكرة ، أسكتتها النظرة الصارمة المطلّة من عينى القائد ، قبل أن يسأله :

ـ ما الذى يعنيه جوابك هذا يا (حسن) ؟

أجابه (حسن) :

ـ فى أثناء التدريبات ، علمونا أنه من الضرورى أن نسعى لإحضار أسرى ، فى كل عملية من عمليات حرب الاستنزاف ، لأن كل أسير نحصل عليه من الإسرائيليين ، يساوى أحد أسرانا لديهم ، عندما تتم عملية تبادل الأسرى .. وعندما علمت أن ذلك الإسرائيلى الأسير سيموت ، ما لم يحصل على الدم ، خشيت أن نخسر بموته أحد أسرانا ، فمنحت دمى له ، من أجل من سنستبدله به من أسرانا ..

ثم ازدرد لعابه ، وشدّ قامته ، وسط الصمت الرهيب ، الذى أطبق على المكان ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ باختصار .. كنت أشعر بأننى أمنح دمى لأسيرنا ، وليس لأسيرهم .

قالها ، وعاد إلى وقفته العسكرية الصارمة الصامتة ، والعيون كلها تتطلَّع إليه فى انبهار وخجل ، والعروق يسرى فيها شعور بالندم وتأنيب الضمير ..

ثم قطع القائد حبل الصمت ..

وأصدر قراره ..

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد (حسن) جنديًا فى الكتيبة ..

لقد أصبح عريفًا ، تزيِّن ذراعه تلك الشرائط ، التى حصل عليها بترقية استثنائية ، و ...

وبالدم .

★ ★ ★

مرة أخرى نلتقى ، فى ذلك الاختبار ، الذى صار جزءًا لا يتجزأ من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) ..

ومرة أخرى نطرح عليك السؤال ذاته ..

هل أنت مثقف ؟!

★ ★ ★

١ ـ « شاعر مخضرم ، ولد ومات بالمدينة ، دافع عن قومه فى الجاهلية ، واتصل بالغساسنة والمناذرة ومدحهم ، وأدرَ عليه الآخرون معاشًا سنويًا ، ودافع عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين ، وهجا قريشًا وشعراءها ، فى أثناء النضال بين النبى وقريش ، وأعجب به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فاتخذه شاعره ، وهو .. » .

□ ثابت الأنصارى. □ بشار بن برد. □ حسان بن ثابت .

٢ ـ « مواد عضوية تزيد سرعة التفاعلات الكيماوية ، وقد تبدؤها ، ولكنها لا تحدث فى غيابها ، وتقوم الخلايا بصناعة هذه المواد ، ولكنها مستقلة عنها فى عملها ، وباستطاعتها أن تعمل بعيدًا

عن الخلية التى تصنعها ، ولكنها لا تعمل إلا مذابة فى الماء ، وهى فى غاية الحساسية للتغيرات الطبية والكيميائية ، التى تحدث حولها ، وهذه المواد هى .. » .

□ الأنزيمات . □ الهرمونات . □ الفيتامينات .

٣ ـ « فى القردة العليا ، الشبيهة ـ تركيبيًا ـ بالإنسان ، يعيش فى غابات (بورنيو) ، وسومطرة الساحلية الموحلة ، وهو ذكى وقابل للتعليم ، يمشى على أربع ويتطوّح بين الأشجار ، وشعره خشن محمر ، الذكر البالغ منه يبلغ طوله مترًا ونصف المتر ، وهذا الحيوان هو .. » .

□ الشمبانزى. □ أورانجوتان. □ غوريلا.

٤ ـ « نهر له منبعان رئيسيان بجبال الأنديز فى بيرو ، ويخترق البرازيل إلى المحيط الأطلنطى ، ويحمل من المياه أكثر مما يحمل أى نهر آخر فى العالم .. طوله ٤٨٠٠ كيلومتر ، وأهم روافده الشمالية (نجرو) و (نابو) ، وهو نهر بطىء الانحدار ، توجد فى حوضه أوسع الغابات الاستوائية فى العالم ، وهو .. » .

□ النيل . □ الرون . □ الأمازون .

٥ ـ « عنصر فلزى سائل ، يستخدم فى مقياس الضغط الجوى ، بالنسبة لوزنه الثقيل ، ومن مقاييس الحرارة ، بسبب تمدده المتساوى لكل درجة من ارتفاع درجات الحرارة ، ويوجد فى الطبيعة منفردًا إلى حد معين ، وخامته الرئيسية هى السينابار ، وهذا العنصر هو .. » .

□ النيتروجين . □ الزئبق . □ الراديوم .

٦ ـ « هبوط مفاجئ فى مجرى نهر ، يحدث عندما تلتقى فى مجراه تكوينات صلبة قاومت النحت ، بأخرى لينة أقل مقاومة ، مما يوجد حالة عدم تعادل فى المجرى ، وتزداد فى مكان الهبوط سرعة تيار النهر ، وقدرته على النحت ، ويأخذ فى تفتيت التكوينات ذاتها ، وخفض المستوى أكثر ، ويطلق على هذا الهبوط اسم .. » .

□ الشلال . □ البحيرة . □ المستنقع .

٧ ـ « إقليم شمال شرق إيطاليا ، ينقسم إلى عدة مقاطعات ، وينتج الحبوب والفواكه والعنب والبنجر والقنب ، وهو مركز بحرى تجارى وصناعى ، ومنازله توجد فى مستوى البحر تقريبًا ، بحيث تكون الزوارق هى وسيلة الانتقال الوحيدة فيه ، وهذا أحد أسباب شهرته ، وهو .. » .

□ قبرص . □ مالطة . □ البندقية .

٨ ـ « وحدة قوة التيار الكهربى ، وهى وحدة لمعدل سريان الكهرباء وشدة التيار ، وهى خارج قسمة القوة الدافعة الكهربية على المقاومة ، وتعرف دوليًا بأنها التيار الكهربى الثابت ، الذى إذا مر فى محلول من نترات الفضة ، رسَّب ٠,٠٠١١٨ جرام من الفضة ، فى الثانية الواحدة ، وهذه الوحدة هى .. » .

□ الوات . □ الأمبير . □ الفولت .

٩ ـ « ممثل ومدير مسرح إنجليزى ، ظهر فى عالم التمثيل لأوّل مرة فى احتفال شكسبير فى ستراتفورد ، وبدأ التمثيل فى

السينما عام ١٩٣٠م ، ومن أشهر أفلامه (هنرى الخامس) و (هاملت) ، ونجح نجاحًا شديدًا فى دور (أوديب) ، وأنعم عليه بلقب (سير) ، فى عام ١٩٤٧م ، وهذا الممثل هو .. » .

□ لورانس أوليفيه . □ دافيد نيفن . □ مايكل كين .

١٠ ـ نبات من الفصيلة البانجانية .. اسمه العلمى (سولانم تيو بيروزم) ، موطنه الأصلى بلاد الأندز بأمريكا ، زرعه الهنود الحمر ، وانتقل منهم إلى أسبانيا فى القرن السادس عشر ، ومنها انتشرت زراعته فى أوروبا ، وهو نبات درنى ، يحتمل التخزين لفترات طويلة ، ويعد واحدًا من أفضل الأغذية ، وهو .. » .

□ الجزر . □ اللفت . □ البطاطس .

١١ ـ « عضو عضلى أجوف ، داخل تجويف الصدر ، فوق الحجاب الحاجز وبين الرئتين ، وهو مخروطى الشكل ، يرقد على جانبه ، بحيث تتجه قاعدته إلى اليمين والخلف ، وينقسم تجويفه إلى أربع حجرات ، اثنتان منها تحملان دمًا مؤكسجًا ، والأخريان تحملان دمًا غير مؤكسج ، وهذا العضو هو .. » .

□ الكبد . □ القلب . □ الكلى .

١٢ ـ « حقبة جيولوجية ، هى القسم الأقدم من الزمن الرابع ، وآخر أزمنة التاريخ الجيولوجى تمتاز بعصر الجليد الكبير ، وفيه ظهرت ثدييات متميزة ، مثل الفيلة ، والحصان الحقيقى ، والقطط السيفية الأسنان ، والذئاب الضخمة ، وهذه الحقبة هى .. » .

□ البلايستوسين . □ الميوسين . □ الحديثة .

١٣ - « مسطح مائى متسع، تحيط به اليابسة من كل الجهات، ويشغل تجويفًا على سطح الأرض، ويشترط لتكوينه وجود منطقة حوضية، تتجمع فيها كمية من الماء، تكون من الكفاية بحيث تعوّض ما يفقد منها، بسبب التسرب والبخَر، وعلى الرغم من هذا فقد يؤدى التبخر الشديد إلى جفافها تمامًا، وهذا المسُطح يعرف باسم .. » .

□ البركة . □ البحيرة . □ النهر .

١٤ - « أقدم الطيور التى ظهرت فى الحفريات، وهو حلقة بين الزواحف والطيور، وجد منها نموذجان فى صخور العصر الجورى فى (بافاريا)، وكان أقل حجمًا من الغراب، وفيه الكثير من صفات الزواحف، ما عدا الريش وتركيب الأطراف، وهذا الطائر هو .. » .

□ العنقاء . □ ميثاسيون . □ أركيو باتريكس .

١٥ - « زاهد ومتكلم ومحدّث، نشأ بوادى القرى، ثم أقام بالبصرة، وفيها عرف بزهده وعلمه وفضله، يعده المعتزلة واحدًا منهم ولكن أكثر شهرته يرجع إلى زهده، ومذهبه يقوم على الإعراض عن الدنيا، وهذا الزاهد هو ..» .

□ عمرو بن إياس . □ الحسن البصرى .

□ الفضل بن جعفر .

١٦ - « بحر ضيق نسبيًا، يمتدّ لمسافة ٢٤٠٠ كم، بين إفريقيا وآسيا، تحتل مياهه أعمق أجزاء الأخدود الإفريقى العظيم، ويحده من الغرب مصر والسودان وارتيريا والصومال، ومن الشرق المملكة العربية السعودية واليمن، وهذا البحر هو .. » .

□ البحر الأحمر . □ البحر المتوسط. □ بحر إيجة .

١٧ - « نبات اسمه العلمى (بيتا فلجارس)، وموطنه شمال إفريقيا، وهو عشب حولى أو ذو حولين، يتكوّن الجذر المتضخّم فى السنة الأولى، وتستطيل الساق وتحمل الأزهار فى السنة الثانية، وجذره وتدى منتفخ، ومنه نوع كبير الدرنات، يستخرج منه أحد أنواع السكر، وهو .. » .

□ القصب . □ الشمام . □ البنجر .

١٨ - « ولاية ألمانية سابقة، عاصمتها (برلين)، كانت تشغل النصف الشمالى من (ألمانيا)، ويقرب سكانها من ثلثى المجموع الكلى للسكان، وكانت تسير فى طليعة ألمانيا، سياسيًا واقتصاديًا، وبعد الحرب العالمية الثانية أعلن مجلس الحلفاء الأعلى إلغاءها كوحدة قائمة بذاتها، وهى .. » .

□ النمسا . □ بروسيا . □ هولندا .

١٩ - « لفظ يطلق على الوثائق الرسمية، أو الاتفاقات التى تقرر قواعد سياسية عامة، صيغتها موجزة غالبًا، وتعقد الوثيقة السياسية بإجراء مفاوضات، يجتمع لها مندوبو الدول المتعاقدة، كما أنها تعقد بالمراسلة، مثل هذه الاتفاقات لا تكون طويلة الأجل، بل محدودة بفترة معينة، وهذا اللفظ هو .. » .

□ برتوكول . □ فرمان . □ معاهدة .

٢٠ - « كيميائى فرنسى، أدت تجاربه على البكتريا إلى القضاء على فكرة التولد الذاتى، كما أدت بحوثه إلى ابتكار فكرة البسترة، ويعود إليه فضل تنمية التطبيق الفنى لعملية التطعيم ضد مرض

الجمرة، وبعد ذلك ضد داء الكلب، وأنشأ عدة معاهد للدراسات الصحية، فى عدد من بلاد العالم، وهذا الكيميائى هو . » .

□ جورج سالك. □ إدوارد جينر. □ لويس باستير.

★ ★ ★

والآن، وبعد أن أجبت عن الأسئلة، راجع الأجوبة ودعنا نختصر الطريق، ونعيد السؤال ..

هل أنت مثقف ؟!..

هيا .. ارجع إلى الأجوبة، فى نهاية الكتاب، فإما أن تأتى الاجابة بنعم، أو ....

أو دعنا نلتقى مع اختبار جديد ..

وكتاب جديد .

★ ★ ★

الزهرة ..

(قصة قصيرة)

« صباح الخير يا زهرتى الجميلة .. » ..

ارتسمت أعذب ابتسامة فى الوجود، على شفتى (نجلاء)، وهى تهمس بتحية الصباح لتلك الزهرة الحمراء المنفردة، وسط حشد من النباتات الخضراء، التى تملأ شرفة منزلها، والتقطت أصابعها الرقيقة رشّاشة المياه الصغيرة، وأمالتها للتتناثر منها قطرات الماء العذب، وتروى الزهرة الجميلة، التى استقبلت الماء ببتلات متفتحة، ومياسم متراقصة، وكأنها تنتشى بحمّام الصباح، وتزهو بجمالها ورونقها ..

كانت زهرة من نوع خاص، يندر أن ينمو ويتفتّح فى إصيص زرع صغير، بعد أن اعتاد أن يحتل مكانة متميّزة، فى قلب الحدائق الغنّاء ..

وربما كان هذا مبعث فخر (نجلاء) ..

لقد حذّرها الكثيرون ، وهى تبتاع بذرة الزهرة ، من أنها لن تنمو أبدًا فى شرفة منزلها ..

حتى والدها ، المهندس الزراعى ، أبدى تشككه فى أن يحدث هذا ..

ولكن (نجلاء) أصرّت ..

ومنذ اليوم الأوّل ، زرعت بذرتها ، وراحت ترويها بحبها ودلالها وعنايتها ، قبل حتى أن تمنحها ماء الحياة ..

وانتظرت ..

انتظرت بشوق يفوق سنوات عمرها العشرين ، وهى تراقب سطح التربة فى لهفة ، وتواصل عنايتها ورعايتها للزهرة ، التى لم تعلن عن نموّها بعد ..

ثم كان ذلك اليوم ..

كانت تنثر قطرات المطر على التربة ، عندما لاحظت النبتة الخضراء الصغيرة ، التى برزت منها ..

ولا أحد يمكنه أن يصف فرحتها يومئذ ..

لقد صرخت من فرط سعادتها ، وراحت تقفز فى الشرفة ، وتصفق بكفيها فى جذل فرح ، كما لو أنها عادت طفلة فى العاشرة من عمرها ، لم تنتبه إلى مبالغتها فى إظهار انفعالها ، إلا عندما وقع بصرها فجأة على (شريف) ، ابن الجيران ، وهو يراقبها من نافذة حجرته ، ويبتسم ..

لحظتها ارتجف جسدها كله ، وجرت على أطراف أصابعها إلى حجرتها ، وأغلقتها خلفها ، وتركت قلبها يخفق بكل قوته ..

كيف نسيت أنه هناك ؟!...

كيف لم تنتبه إلى أن اليوم يوافق إجازته الأسبوعية ، فأفرطت فى فرحتها ، وتركت صوتها يبلغ أذنيه ؟!..

كيف نسيت أنه غارق فى حبها ، مثلما هى غارقة فى حبه ؟!..

صحيح أنهما لم يلتقيا قط ، ولم يفصح أحدهما للآخر عن مكنون قلبه ، إلا أن كلًا منهما لا يداخله أدنى شك فى شعور الآخر نحوه ...

يكفى ما يتبادلاه من نظرات ، وما يختلسانه من لحظات ، ليستشف كل منهما ما يحمله له الآخر ..

ثم إنه من السهل أن يفهم كل منهما الآخر ..

إنهما جاران منذ الطفولة ، والأسرتان تتبادلان التهنئة وعبارات المجاملة ، فى الأعياد والمناسبات ، وإن لم تتصل تلك العلاقة قط ، إلى الحد الذى يحدث فيه تزاور من الجانبين ..

وهى تعرف أخلاق (شريف) جيدًا ..

كل من فى الشارع يعرفها ..

إنه مثال للشاب الرصين المتزن المحترم ، الذى أنهى سنوات دراسته بتفوّق معقول ، ثم التحق بالعمل فى واحدة من شركات القطاع الخاص ، التى قدّرت كفاءته ، ووضعته فى مكانة مناسبة ، لم يكن من الممكن أن يبلغها ، فى شركات القطاع العام ، قبل عشرين عامًا على الأقل ..

وهى تعتقد أنه يستحق هذا ..

دائمًا تعتقد أنه يستحق كل خير ..

هذا لأنها تهتم به كثيرًا ..

أو بمعنى أدق ، تهيم به كثرًا ..

بل ربما اختارت تلك الشرفة بالذات ، لتزرع فيها زهرتها ، حتى تجد حجة تطّل بها على حجرته ، فى المبنى المجاور ...

ولقد أحسنت الاختيار بالفعل ..

الزهرة أيضًا ارتاحت للشرفة ، وقرّرت أن تتخلّى عن حذرها التقليدى ، وأن تنمو داخل ذلك الإصيص الصغير فى الشرفة ..

وبسرعة ، تحوّلت النبتة الصغيرة إلى نبات قوى ، برز من قمته بُرغم كبير ، لم يلبث أن استدار وتكوّر ، وأعلن عن قرب مولد الزهرة الجميلة ..

وفى نفس اليوم ، الذى تقدّم فيه (شريف) لخطبتها ، وقرأ فيه والدها الفاتحة مع والده ، تفتّحت الزهرة ، وكأنها تشاركها فرحتها بزغرودة صامتة جميلة ..

وكانت الفرحة فرحتين كما يقولون ..

فى الصباح تحقّق حلمها ، وتفتّحت زهرتها ..

وفى المساء خفق قلبها ، وارتبطت بحبيبها (شريف) ..

أخيرًا أمكنها أن تعرفه عن قرب ..

ولقد غيّر هذا مشاعرها كثيرًا ..

كانت قبل هذا تحبه ، أما الآن فهى تعشقه ..

إنه أروع مما قالوه عنه ..

إنسان مهذّب متفتح ، رقيق ، حازم ، عاطفى ، متفهم ..

باختصار .. إنه حلم جميل لكل فتاة فى الدنيا ..

وعلى الرغم من حبها وعشقها له ، لم تنس (نجلاء) زهرتها قط ..

كانت تشعر بالفخر والسعادة ؛ لأنها أوّل من نجحت فى إقناع هذه الزهرة بأن تتفتّح فى شرفة منزلية ..

كل زميلاتها حاولن ، وفشلن ..

كلهنّ بذلن غاية جهدهنّ ، لإنبات زهرة مثلها ، ولكنهنّ منين بالفشل الذريع ..

وهذا يزيدها زهوًا ..

إنها ترى نظرات الحسد فى عيونهنّ ، وهن يشاهدن زهرتها ، وتسمع كلمات الحسرة التى لم ينطقن بها ، وهنّ يتأملنها ..

المنطقة كلها أصبحت تحفظ ذلك المشهد ..

مشهد (نجلاء) ، وهى تروى زهرتها فى الصباح ، فى دلال بالغ ، وتهمس لها بعبارات رقيقة ، كما لو كانت ابنتها ..

الجميع صاروا يعرفون كم ترتبط بهذه الزهرة ..

وكم تحبها ..

حتى الزهرة نفسها ، بدت وكأنها عرفت هذا ولاحظته ..

لقد نمت بأوراق حمراء عريضة وكأنها تعلن سعادتها بالتواجد فى هذا المكان ..

وفى حفل خطبتها ، لم تغادر (نجلاء) المنزل ، إلا بعد أن طبعت قبلة حانية على ساق زهرتها الجميلة ..

وعندما عادت من الحفل ، وهى تحمل دبلة (شريف) فى إصبعها ، جلست تروى كل شىء ، للزهرة ..

حكت لها عن أناقة (شريف) ووسامته ، وحنانه الجارف ، ولمسته الرقيقة ، وهو يضع الدبلة فى إصبعها ..

كانت تتحدث إليها ، كما لو أنها صديقة عزيزة ، شاركتها أسعد لحظات حياتها ..

والعجيب أن الزهرة لم تنغلق أبدًا مع لمساتها ، على الرغم من أن هذا النوع من الزهور لا يتفتح أبدًا فى مكان غريب ..

ولا بين أصابع غريبة ..

لقد نما نوع الألفة بينهما ، جعل كلًا منهما تألف الأخرى ، وتأمن لها ، وتشاركها مشاعرها وأسرارها ..

وفى ذلك اليوم ، وبينما كانت تروى زهرتها ، جاء (شريف) لزيارتها فجأة ..

لم يكن يحمل تلك الابتسامة الرقيقة كعادته ، وإنما كانت عيناه غارقتين فى شىء من الحزن ، ارتجف له قلبها ، وانتقلت ارتجافته إلى لسانها ، وهى تسأله عما به ..

وبرقته وحنانه ، أخبرها أن الشركة انتدبته لمراجعة حسابات فرعها فى الخليج العربى ، وأنه سيسافر إلى هناك بعد ثلاث ساعات ، ولن يعود قبل ثلاثة أشهر كاملة ..

وخفق قلبها ، وهو يهمس فى أذنها بأنه سيشتاق إليها كثيرًا ، وسيتعذب لفراقها أكثر وأكثر ..

لم تكن تدرى كيف يمكنها العيش بدونه ، كل هذه الفترة ..

لم تدر كيف لن تراه كل صباح ، وهو يذهب إلى عمله ..

كيف ستحتمل غيابه الطويل ؟..

وسالت دموعها ، وهى تسأله ألا ينساها ..

وبدون أن تدرى ، امتدت يدها تقطف الزهرة ، وتناوله إياها ، وقطرات من دموعها ترويها بمزيج من الشوق واللهفة والحب ...

والعجيب أن الزهرة لم تغلق أوراقها بين أصابعه ..

لقد ظلت متفتحة ، تفوح برائحة الحب ..

وحتى يومنا هذا .

★ ★ ★

المـــــرأة
مشكلـة صنعها الرجل (دراسة)

فى هذه المرة، قرّرت أن أكسر القاعدة ..

صحيح أنها ليست أوّل مرة أفعل فيها هذا ؛ فلست أميل بطبعى إلى النمطية، ولا إلى السجن فى قوالب جامدة، أو آراء لم تعد تناسب العصر ..

ولكنها المرة الأولى، التى أجدنى فيها مضطرًا لكسر القاعدة ..

لقد بدأت دراستنا، حول علاقة الرجل بالمرأة، على نحو يكسر القواعد التقليدية ..

بدأت بجمع آرائكم حول دراسة لم تبدأ بعد ..

وكان هذا، فى حد ذاته، جزءًا من الدراسة ..

لقد استفزّكم العنوان ..

مجرّد العنوان ..

وهذا يعنى أن المشكلة كامنة بالفعل فى أعماقكم، وأن كل ما كانت تحتاج إليه هو أن يضع شخص ما إصبعه عليها، فتنفجر فى عقولكم، وتنسكب علىّ رزم من الأوراق والرسائل، اكتظّ بها مكتبى، وازدحم بها عقلى، حتى أنها التهمتنى تمامًا لأكثر من ثلاثة أيام، قرأت خلالها العشرات والعشرات من الخطابات والآراء والتعليقات ..

وساعة فساعة، راحت تنمو داخلى فكرة ضخمة ..

كيف أصل بهذا السيل من الآراء للجميع ؟!..

كيف أطرح أفكاركم ومقالاتكم ودراساتكم للقراءة والمناقشة، فى هذه المساحة الصغيرة، التى نمتلكها معًا فى (كوكتيل ٢٠٠٠) ؟!..

وراودتنى فكرة مجنونة فى أن أنشر كل الرسائل ..

وكادت الفكرة تصيب المسئولين عن النشر بأزمة قلبية ..

كيف تنمو دراسة محدودة، داخل سلسلة دورية، حتى تلتهم السلسلة كلها، ولا تفسح المجال للقصص القصيرة، والمسلسلة، والدراسات الأخرى، والروايات، وغيرها ؟!..

وكان من المحتّم أن أتراجع ..

ولكننى لم أنسحب إلى خطوط القتال الأولى ..

لقد نجحت فى احتلال مساحة من الرأى والعناد، تكفى لنشر عدد من أفضل ما تلقيت من رسائل فى هذا الكتاب، على أن أواصل نشر الرسائل الأخرى فى الكتب القادمة، وخاصة لو أنها تحوى بعض الآراء الجديدة ..

وكان هذا الحل يرضى جميع الأطراف ، إلى حد ما ..
الطرف الوحيد ، الذى لم يتمّ استطلاع رأيه فى هذا القرار ، هو أنتم ..
أصدقاء الورق ..
وهأنذا أطرح عليكم الشكل الذى اتفق عليه رأينا هنا ..
وأنتظر رأيكم ..
والآن ، هيا نطالع معًا عددًا من الرسائل ..
ومن الآراء ..

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية طيبة وبعد ...
صديقى العزيز : د . نبيل فاروق ..
أود فى بداية حديثى أن أشكرك كثيرًا .. لأنك فتحت لنا أبواب هذا الحوار الرائع .
آه لو تعلم كم تمنيت هذه الفرصة العظيمة .. منذ زمن .. فلدى الكثير .. الكثير جدًا .. وكم تمنيت أن أتحدث به إلى أحد ....
ولقد فعلت مرة .. وكان رد الفعل .. مدهشًا .. فالبعض اعتقد أنى بدائية .. متحجرة .. متخلفة .. وربما أكون عقبة فى طريق تحرر المرأة من قيودها .. تلك القيود التى أدمت معصميها منذ قرون .. قرون طويلة ....

ولكن .. كل ما تحدثت به إليهم .. وكل ما سأتحدث به إليك الآن هو عبارة عن مشاعر .. فقط بعض المشاعر والآراء ... وكل إنسان له مطلق الحرية فى إبداء رأيه والتعبير عن مشاعره ..
الموضوع .. ساحر .. جذاب .. كزهرة ربيعية متفتحة .. ولكنه واسع .. عميق .. كمحيط شاسع لا تهدأ أمواجه .. أبدًا ..
رجل وامرأة .. كلمتان بينهما حرف عطف .. والعالم كله بين هاتين الكلمتين ... وهذا ليس بجديد ...
قرون طويلة .. عاشها الرجل والمرأة .. معًا .. تأرجحت العلاقات بينهما .. تغيرت .. وتقاربت .. وتباينت ..
ازدهرت واندثرت .. انسابت واقتحمت .. بردت وجفت .. هدأت واشتعلت .. سكنت والتهبت .. تحطمت .. وتقدمت .. ثارت واستسلمت .. ولكنها استمرت .... تارة كالحرير .. وتارة كالحديد والنار .. تارة تحمل عبير الورود والحب .. وأحيانًا تحمل طلقات الرصاص .. وألسنة لهب وخناجر ملوثة بالدماء .. وتارة .. كالماء .. لا لون .. لا طعم ولا رائحة .. وتلك هى أسوأ العلاقات على الإطلاق .. ولكن لماذ ؟!.. لماذا يلجأ أحدهما إلى الآخر ؟..
ماذا يريد كل منهما من الآخر ؟..
ماذا يريد الرجل من المرأة ؟
وماذا تريد المرأة من الرجل ؟؟!.. عبر كل هذه العصور ..
ماذا أرادت ؟.... آه المرأة !!..
الأسئلة كلها صعبة .. محيرة .. لم تحيرنى أنا فقط ولم تعبث برأسى أنا فقط .. وإنما اهتزت برنينها أوتار العقول فى كل مكان وزمان ..

ولذلك فقد بذلت بعض المحاولات .. داخل نفسى وخارجها .. بحثًا عن تلك الإجابة الضائعة .. ولم أبدأ بحثى باليوم .. أبدؤه منذ خُلق آدم .. خلقه الله (سبحانه وتعالى) وأسكنه الجنة .. ولكن آدم .. كان وحيدًا .. شعر باحتياجه لشىء آخر .. شيئًا لم يجده حتى فى الجنة !!.. احتاج إلى من يؤنس وحدته .. ويشاركه ضحكته .. ويسمع همسته .. ويسكن إليه .. احتاج إلى من يحبه !!..

وخلق الله حواء ... ولو أننا تخيلنا أول حوار دار بينهما ....

سألها فى دهشة حين استيقظ من نومه .. ورآها أمام عينيه :

ـ من أين أتيتِ ؟.. لم تكونى هنا قبل نومى ..

فأجابت ...

ـ خلقنى الله من ضلع فى صدرك وأنت نائم ...

فقال فى سعادة :

ـ حمدًا لله .. سأجد من يشاركنى الجنة .

وعندما سأله الملائكة عن اسمها .... قال لهم :

ـ سأسميها حواء .. وأسماها حواء .. أتدرى لماذا ؟..

لأنها منه .. وهو حى ....

هذا هو لب الموضوع .. إنها منه .. وهكذا خلقها الله .

خلقها من ضلع فى صدره .. لكى تكون قريبة من قلبه دائمًا إلى جواره .. يظلها بجناحيه .. وبين ذراعيه تحيا فى سلام .... ويمر الزمن ....

وبمرور الزمن ...

نسيت المرأة أنها منه .. ونسى الرجل أنه يحتويها ...

وهنا بدأت المشكلة .. وبدأت المرأة تتبرم وتثور .. وبدأ الرجل يسخط ويتذمر .. وبدأ كلاهما فى الصراخ دفاعًا عن حقوقه ولكن أحدهما لا يسمع الآخر .. لا يفهم الآخر .. وبدأ الصراع وتاه كل منهما فى طريق..

رجل يحتاج لامرأة يحتويها ويسكن إليها .. وامرأة تحتاج إلى فارس .. ويا لها من كلمة فى زمن .. تندر فيه ملامح الفرسان .. إنها ليست ملامح وجه أو جسد .. إنها ملامح شخصية .. ملامح كانن اسمه الرجل .. ولكن ليس أى رجل .. ملامح لا ترى بعين وإنما تحس بقلب ، تحوى بين طياتها .. أنبل ما فى الوجود .. دفء وحنان .. شجاعة وإقدام .. صرامة وكرامة .. بسالة بلا نهاية .. وقلب .. قلب بلا حدود .. ملامح رجل يحارب الدنيا كلها من أجل مبدأ ..

رجل لا يعرف الخوف .. إلا من بارئه .. لا يعرف الخيانة ولا يطعن فى ظهور أعدائه .. ولا يفر ابدًا من مبارز .. ولا يبخل على سائل ... رجل يحب بكل قلبه حتى وإن لم ينطق كلمة الحب .. تتضاءل تلك الكلمة إلى جوار ما يفعله من أجل حبيبته .. كل ما يفعله .. وحتى لو كانت لفتةُ صغيرة من إصبعه .. لإبعاد حشرة صغيرة اقتربت من حبيبته .. فتلك الأشياء وإن غابت عن ذهن الرجل إنما تؤثر تأثيرًا عميقًا فى وجدان المرأة وعقلها وقلبها ..

ولكن ...

أصبحت تلك الاحتياجات .. حبيسة فى نفس حواء .. تقاوم كل ما حولها .. تعتصرها كل الماديات .. تدوسها عجلات السيارات .. تدمرها قسوة الزمن .. وخيانة الأصدقاء .. تسحقها كل الأخلاقيات الرديئة ..

وتشعر بالألم .. فأطلال الفارس تتحول إلى رماد .. غبار تلهو به رياح عابثة ، فلا يبقى منه سيف يذود ولا يد تحمى ولا نظرة عين ترد غضبة عدو ....

تكاد تؤمن بأنه لن يأتى .. ولن يحيا أبدًا من رماده ولكنه الأمل ... يتسلل إلى نفسها يسكنها .. فتظل تحمل فى طيات نفسها ذلك الفارس .. تدخر له كل ذرة حب فى قلبها .. كل كلمة عشق .. ستنتظره .. وحينما يأتى ستمنحه كل نبضات الحب والأمل وكل ما تحويه نفسها من جمال .. أتدرى لماذا تنتظره ؟!..

لأنها تحتاج إليه .. تريد منه كل ما أرادته المرأة من الرجل عبر العصور .. ما أرادته كل امرأة .. من كل رجل ...الأمان ..

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

صدق الله العظيم

A.F

عبير فوزى

★ ★ ★

« آراء جادة » :

المرأة مشكلة .. نعم .. ولكن لم يصنعها الرجل وحده .. فقد شاركت المرأة نفسها فى صنعها .. فهناك دائمًا حرب معلنة أو غير معلنة بين الرجل والمرأة .. صراع أبدى بينهما .. لماذا .. لست أدرى .. إن لكل منهما مكانته ولا حياة لأحدهما بدون الآخر ، وقد خلق الله تعالى حواء من آدم لتؤنس وحدته وتكون له أمنًا وسكنًا ، قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ... لِمَ يشتعل الصراع بين الرجل والمرأة إذن ما دام الله قد جعل بينهما مودة ورحمة ؟! أعتقد أن هذا لأن كلًا منهما لم يعرف حقيقة دوره فى الحياة ولم يدرك مكانته .. فالمرأة رفضت قوامة الرجل عليها بالرغم من أن الله تعالى جعل الرجل قوامًا أى رئيسًا عليها ليس للاستعباد والتسخير وإنما للإشراف والرعاية .. وقد أعطى الله الرئاسة للرجل بحكم تكوينه الطبيعى وبحكم كده وعمله فى تحصيل الرزق الذى ينفقه على أسرته .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .. فقد جعل الله الإنفاق واجبًا على الرجل لا المرأة ومن هنا نبعت القوامة .. ولأن المرأة ترفض أن يكون الرجل قوامًا عليها فقد خرجت إلى العمل ..

وأنا لم ولن أصدق أنها خرجت إلى العمل حتى تشغل وقتها وتستثمره أو لتحقيق ذاتها فى العمل ..

فالمجال أمامها متسع لتحقيق الذات فى تربية أبنائها وتعليمهم وفى خلق جيل جديد قوى بناء .. ولست أقرُّ ترك المرأة لأبنائها وإهمالها لهم لكى تعمل إلا فى أضيق الحدود ..

(ملحوظة : أتوقع أن تنهال علىّ اللعنات من بعضهم بسبب هذه الكلمات ولكن هذا رأيى)..

وقد تحقق المرأة نجاحًا كبيرًا فى بعض مجالات العمل ، وقد تكون ملكة وحاكمة ووزيرة ، ولكن ستظل الأسرة هى مملكة المرأة التى تستطيع التربع على عرشها ، وستظل المرأة المنبع الأول للحنان والحب لأطفالها .. وقد بيّن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عظيم حق الزوج وجزاء طاعته فقال : (أيما امرأةٍ ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة) وقال أيضًا : (ولو أمرتُ أحدًا أن يسجد لأحدٍ [غير الله] لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها)..

ولأن المرأة كذلك إنسان لها رأى وعقل وكيان ودور فى الحياة ، فقد كرمها الله فى كل موضع ، ويكفى أنه (سبحانه وتعالى) قد جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ... وكلنا نعرف أنه وراء كل رجل عظيم امرأة تدفعه إلى الأمام .. ولكن المرأة بالطبع لا تريد ذلك .. لا تريد أن تكون وراءه أبدًا حتى ولو كان نجاحه نجاحًا لها .. فلماذا لا تكف المرأة عن الشعور بذلك الوهم .. الوهم بأن الرجل يريد دائمًا استعبادها وإذلالها .. لماذا لا تكف عن عقد المقارنة بينها وبينه ...

وإذا تكلمنا عن القيود التى تحيط بالمرأة منذ الصغر فهى والحق يقال كثيرة .. فكل فتاة تحاط برقابة شديدة فى دخولها وخروجها وفى ملابسها ومظهرها وفى حديثها وكل كلمة تنطق بها .. وهذا

ليس بخطأ .. ولكن الخطأ كل الخطأ فى أمرين .. الأول أن يبالغ الأهل فى رقابتهم وفى تحذيرهم للفتاة فتشعر بعدم الأمان ، وتشعر بأنها تعيش فى غابة مليئة بالوحوش الطامعة فيها .. والأمر الثانى .. أن يطلق الأهل العنان للفتاة لتفعل ما تريد رغبة منها فى الشعور بالحرية المطلقة وبالمساواة مع الرجل .. وأعتقد أنه لن تكون هناك مساواة كاملة بين الرجل والمرأة .. وهذا شىء طبيعى .. فالمساواة تكون فى الحقوق والواجبات كذلك .. وما دامت المرأة لن تفعل كل ما يفعله الرجل ، وما دام الرجل لن يفعل كل ما تفعله المرأة ، فلن تكون هناك إذن مساواة كاملة .. ولاشك أن هناك حقوقًا للمرأة لم تحصل عليها بعد .. وأهم هذه الحقوق ندركه بسهولة عندما نسمع عما يحدث لنساء البوسنة والهرسك .. ومن الأمور الظالمة للمرأة فى مجتمعنا .. تفرقتنا بين خطأ الرجل وخطأ المرأة .. فإذا أخطأ الرجل قلنا : إنه رجل .. أما إذا أخطأت المرأة فقل عليها السلام .. وقد نالت المرأة فى عصرنا حقوقًا كثيرة وأصبح رأيها مسموعًا فى كل مجال..

(ملحوظة : الشقة من حق الزوجة) ...

ومن المؤسف أن المرأة عندما شعرت بأنها مظلومة ، وعندما أرادت أن تتساوى مع الرجل فى كل شىء .. قلدته فى كل شىء أيضًا .. فى تصرفاته وملابسه وخشونته ، وقبلت التنازل عن أنوثتها بكل سهولة .. حتى أنه قد يتعذر علينا أحيانًا التفرقة بين رجل وامرأة .. وهى بذلك تخالف الطبيعة وتخالف إرادة الله الذى خلقها أنثى ومنحها أقوى الأسلحة للدفاع عن نفسها ، وهذا السلاح هو ضعفها ..

ولست أقصد الضعف بمعنى الخنوع والاستسلام ولكن أقصد الضعف القوى الآسر .. الضعف الذى يعد أشد فتكًا من أى سلاح .. الضعف الذى يملكك فى حُنو ورفق .. وأكرر أنه لا داعى لأن تعقد المرأة المقارنات بينها وبين الرجل .. لا داعى لأن تتحداه .. فلكل منهما تكوينه الطبيعى، ولكل منهما طريق خاص به يسير فيه ثم يلتقيان لكى يسيرا معًا فى طريق واحد ليكمل كل منهما الآخر .. وقد قرأت عبارة لكاتبة فرنسية تقول فيها : (إننى أرفض بكل قوة أن هناك مؤامرة كونية ضد المرأة .. وأن هذه المؤامرة هى التى مكنت الرجل من أن يجعل المرأة ترسف فى الأغلال .. فى البيت والشارع والمصنع .. أبدًا عقلى يرفض ذلك تمامًا .. فإن كانت عبودية للمرأة فهى التى وافقت على ذلك .. وإن كانت المرأة لاتزال وراء الرجل فلأنها أرادت ذلك .. إن أظفار المرأة قد فتتت الصخر، وإن جنود الإغريق عندما لم يجدوا حبالًا يشدون بها السفن فى حرب طروادة تقدمت المرأة وقصت شعرها ليصنعوا منه الحبال .. إن هذه المرأة لو أرادت لجعلت شعرها حبالًا تشنق بها الرجال .. ولكنها لاتستطيع .. وهى لاتستطيع لأنها لاتريد .. مع الأسف) ... وبالطبع هذه ليست دعوة للنساء لكى يشنقن الرجال ...

فإذا كانت المرأة تحب دائمًا أن تكون مشكلة .. فلا يجب علينا أن نلوم الرجل لأنه لم يصنع هذه المشكلة .. وحده ...

إيهاب رضوان سعد الدسوقى
كلية التربية بالمنصورة ـ الفرقة الثانية رياضيات

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

د . نبيل فاروق ..

هذا هو رأيى فى مقالكم المنشور بعدد كوكتيل ٢٠٠٠
« المرأة مشكلة صنعها الرجل » ...

المرأة أكذوبة صنعها الرجل

« مهلًا يا سيدى الفاضل .. أرجوك لا تصدر علىّ حُكمًا قاسيًا من قراءتك للعنوان، ثم لا تُلقى بملايين الاتهامات من قبل حتى أن تقرأ ما كتبته .. وحتى تعلم معنى العنوان وتفهمه جيدًا دعنا نمسك بطرف الخيط وهى تلك العبارة التى ذكرها (د . نبيل فاروق) فى الدراسة وهى : (أن الرجل يقول عن المرأة إنها مشكلة دون أن يعلم أنها من صنعه .. وذلك عندما رفض فى البداية أن يمنحها حقوقها البسيطة العادلة) .. ومع احترامى لرأى (د . نبيل فاروق) إلا أن هذه العبارة تسبقها كلمة (آراء جادة) قد أحدثت صدى ودويًا فى عقلى ... ولنسأل الكاتب معًا، ما هى أبسط الحقوق التى منعها الرجل عن المرأة ...؟!

فلنعد للبداية الكاريكاتيرية عندما نرى المرأة البدائية البسيطة جالسة فى الكهف مرتجفة مذعورة من ذلك الوحش الضخم الممتلئ بالشعر ألا وهو الرجل .. فى حين أننا نجد الرجل وقد سقط صريعًا فى

هوى تلك الحسناء .. وبعد ذلك نجده وهو يقاتل ذلك الديناصور فى جسارة وقوة ثم يصرعه ويقدم للحسناء لحمه كهدية بسيطة ... هنا تدرك المرأة حقيقة واحدة هى أنها ضعيفة فى تلك الدنيا وأن الرجل - الوحش فى نظرها - إنما هو ملاكها الحارس فى هذه الحياة فهو يأتيها بالطعام وينود عنها ضد كل ما يهاجمها .. وفوق كل ذلك كان كالعبد بالنسبة لها ...

وقوة الرجل هى التى فرضت على المرأة أن تقف هذا الموقف، وضعفها هو الذى جعلها ترضخ لقوة الرجل بعد أن أيقنت أنها لن تستطيع حماية نفسها فى هذا العالم الموحش ... فبجانب الرجل عرفت المرأة الأمان والاطمئنان .

ولننتقل معًا من هذا الزمن السحيق إلى عصرنا الحالى وننظر فى معظم منازل مصر أو فى السواد الأعظم منها .. لنجد أن العلاقة بين الرجل والمرأة كما هى ...

تتساءلون كيف ؟!.. نعم العلاقة كما هى فنحن نجد أن الرجل لم يعد يُقاتل ديناصورًا لكى ينال رضا المرأة .. ولكن صار عليه أن يقاتل عالمًا بأكمله ليحصل لها على شقة وأموال لكى ينال رضاها ... فنجده غارقًا فى عمله حتى أذنيه .. وهى تمارس هواياتها المنزلية متخيلة أن ما تقوم به هو عمل جبار تركه لها الرجل بعد أن خشى من عدم احتماله له ... ونجد الرجل منهك القوى فى آخر يومه .. بعد أن حصل للمرأة على الديناصور .. آسف .. على الأموال !!

أعلم أنكم ستسخرون منى وتقولون فى استعلاء : (إن المرأة صارت تعمل مثل الرجل تمامًا الآن وأصبحت متساوية معه فى الحقوق والواجبات المهنية .. ولكن مهلًا يا سادة قبل أن تسخروا منى انظروا إلى آخر الاحصائيات المصرية والتى تقول ما يأتى ...

[إن عدد العاملات المصريات بأجر فى مصر نسبتهن لاتتجاوز ٦٪ من نساء مصر] !! وأين الباقى ؟!.. نعم أين باقى نساء مصر يا من تتكلمون عن عمل المرأة ؟ أين ٩٤٪ من نساء مصر ؟!.. سنجد أنهن بالمنازل يقمن بتربية أطفلهن والاعتناء بأسرهن ، وإذا سألت يا سيدى أية سيدة فى مصر عمًا إذا كانت تفضل أن تعمل ، فستجيب بقولها .. إن المرأة مكانها الحقيقى هو منزلها .. لماذا ؟!.. لقد تعبت المرأة . نعم لم تعد تتحمل ما يحدث . إنها ضعيفة ، نعم ضعيفة ومن هذا الضعف خرجت الأكذوبة .. الأكذوبة التى ضخمها الرجل .. لقد أخفت المرأة ضعفها بأكذوبة وهالة زائفة غرسها لها رجل الكهف عندما قدم لها الديناصور ..

● وبعد ذلك تقول يا سيدى : إن الرجل منع عن المرأة حقوقها ..!!

أية حقوق يا سيدى بالله عليك ؟ « الرجال قوامون على النساء » وهذا ما يجعل الرجل يعمل ويحكم ويسود ، ولننظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى حذر من أن تتولى امرأة حكم شعبها لأنها ستفسد البلد .. لأن المرأة أسيرة لأهوائها وعواطفها الشخصية ..

يا عزيزى الكاتب .. نحن الذين صنعنا تلك الأكذوبة والهالة حول المرأة التى ضاعفت من حجمها ، ونحن الذين احترمناها ووفرنا لها كثيرًا من أمان وحماية وراحة فى منزلها ولم نمنع عنها أى حقوق يا سيدى .

كلمة أخيرة .. المرأة خرجت من ضلع مكسور ثم .. كسرت كل الضلوع ..

أحمد محمد حسن عرفة

★ ★ ★

د . نبيل فاروق :

تحية طيبة وبعد : أرسل هذا الخطاب :

أولًا : لتهنئتك على المجهود الكبير الذى تبذله لإخراج هذه السلسلة الرائعة (كوكتيل ٢٠٠٠) وكل المجموعات الأخرى من (رجل المستحيل) و (ملف المستقبل) وغيرها ..

ثانيًا : لأهنئك أيضًا ولكن لطرحك موضوع « المرأة مشكلة صنعها الرجل » الذى طرحته فى العدد الثامن عشر وطلبت من القراء إبداء رأيهم فيه . وها هو رأى المرأة منذ خمسين سنة فقط كانت كل مهامها هى المهام المنزلية البحتة من طهى وتنظيف وترتيب ، لم يكن لها الحق فى إبداء رأيها فى شىء . لم يكن لها الحق فى التعليم . لم يكن لها الحق فى الخروج من المنزل ، وإن حدث ونظرت مرة من النافذة تنقلب الدنيا فوق رأسها . وشيئًا فشيئًا أصبحت تذهب إلى المدرسة وتتعلم ولكن فى أضيق حدود . وأصبحت تستطيع إبداء رأيها فى بعض المشاكل المنزلية لا أكثر . والرجل يعتقد بهذا أنه أعطاها حقوقها . لذا فقد كانت الثورة لازمة . كان لابد من شىء ليغير من وجهة نظر الرجال نحو النساء . وبدأت المرأة تطالب بالمساواة بينها وبين الرجل ليس لأنها تريد هذا فهى بداخلها تعرف أنها لا تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل ، ولكن لكى تثبت له أن لها رأيًا وأن لها من الحقوق مثلما له ، وحتى إن فشلت فيكفى

أنها حاولت وأنها لم تستسلم للأمر الواقع . وبدأت تعمل .. مثلما يعمل الرجل وأصبحت تنافسه ليس لمجرد أن تعمل مثله ولكن لتثبت للرجل أنها تستطيع القيام بأصعب المهام مثله وأنها تستطيع أن تتكفل بنفسها وتستطيع حماية نفسها ولا تحتاج لمن ينفق عليها أو يحميها ، ولتقول له : هأنذا أخرج كل يوم للعمل وأواجه مشاكل لا حصر لها مثلما تواجه أنت من مشكلات المواصلات ومشكلات العمل ، بالإضافة إلى المشكلات العائلية والمنزلية » ومع ذلك فالمرأة لا تستطيع إرضاء الرجل أبداً . دائمًا لا يعجبه ما تفعل ..

إن كانت هادئة فى تصرفاتها ... اتهمها بالبرود

وإن كانت منفعلة ثائرة ... اتهمها بالحدة

وإذا كانت مستسلمة لآرائه ... تفعل ما يأمرها به

قال الرجل : سهلة المراس ... لا رأى لها

وإن أبدت رأيها فى كل صغيرة وكبيرة ... قال تدس أنفها فى كل شىء ..

وإذا فكرت فى طموحاتها وآمالها ... وجاء الحب فى المرتبة الثانية من حياتها .. قال :امرأة بلا قلب ..

وإذا كانت رومانسية والحب فى المرتبة الأولى عندها قال : إمرأة بلا طموح ..

إذن فهى فى كل الأحوال لا ترضيه ، ثم يقول بعد ذلك إنها مشكلة .

اليست بتعنته وقسوته وتسلطه أصبحت مشكلة ؟ إن الرجال دائمًا يرددون أن الزواج شر لابد منه ، وأنا معهم فى الجزء الثانى من مقولتهم ، فالزواج لابد منه ، فهو أساس المجتمع . ولكن لماذا هو شر ؟ إنه شر لأن الرجل يفرض سيطرته وآرائه المتعنتة . فإن أرادت المرأة الثورة عليه انطلقت تفعل ما تريد وتعانده فى كل أموره ، وترتدى ما تريد من ألوان لا يحبها زوجها ، وتفعل ما يغضب زوجها ، فإذا به يتهمها بأنها لا تصون كرامته وأنها تعرض سمعته للخطر والقيل والقال ، لماذا ؟ فهو إن كان ديمقراطيًا فى حياته معها حنونًا غير متسلط من البداية لما ثارت على آرائه وانطلقت بحرية دون تفكير فى شىء . وأنا هنا لا أقول إن كل الرجال كذلك ، ولكن أقول هذا لمن تنطبق عليه المواصفات السابقة . ثم لماذا يشكو الرجال من الحموات دائمًا ، ويجعلها فنانو الكاريكاتير موضوعًا للسخرية ويقولون دائمًا إنها تفسد حياتهم الزوجية ؟ لماذا ؟ لأنها دائمًا تنصح ابنتها وتريد أن تجنبها ما واجهتها هى فى حياته الزوجية . ولكن الزوج يريدها آلة لتنظف وتطهو وترتب وتربى الأطفال . والمرأة لا تواجه السيطرة عليها فى بيت زوجها فقط بل أيضًا قبل أن تتزوج عندما كانت فى بيت أبيها دائمًا يكون الابن الذكر هو الذى فى المقدمة حتى وإن كان أصغر منها سنًا .

وأخيرًا لا أريد أن أطيل أكثر من هذا ، وإنما أردت طرح المشكلة من عدة زوايا . وأعلم أن من سيقرأ هذه الرسالة سيعتقد أنى متعنتة ومنحازه إلى جنسى ولكن هذا غير صحيح ، فأنا مؤمنة تمامًا إن

للرجل حقوقًا على زوجته وأخته أو حتى ابنته ، فهو يحب أن يسيطر عليها ، فهذا يشبع غروره ، كما أن المرأة دائمًا تحتاج لمن ينكرها بانها أنثى وهذا يحدث من خلال سيطرة الرجل عليها ، وأنما أردت أن أقول وجهة نظرى ، وأنا لا أطمع فى نشر هذه الرسالة فهى طويلة ، وأنا أعلم هذا ، وإنما فقط أتمنى أن أقرأ آراء ووجهة نظر الذكور أيضًا ..

ومرة أخرى أهنئك لطرحك هذا الموضوع الشيق وأقول لك إن هاتين الصفحتين ما هما إلا نقطة ماء فى بحر ، فالكتابة فى هذا الموضوع لا تنتهى ، وأرجو أن تكون هاتان الصفحتان قد عبرتا عن وجهة نظرى ، ولى طلب صغير . إذا وصلتك هذه الرسالة بإذن الله وقرأتها فأرجو أن تخبرنى ولو بكلمة صغيرة وشكرًا .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

رشا محمد عبد الحميد
القاهرة ـ مدينة نصر
شارع أحمد الزمر امتداد الذاكر حسين

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

« وما توفيقى إلا بالله »

والله لولا الله ما اهتدينـــا   ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا
فأنزلـــن سكينـــة علينـــا   وثبت الأقدام إن لاقينـــا

الأستاذ نبيل فاروق ..

تحية طيبة .. أما بعد ..

أسرنى كثيرًا طرقك لموضوع طالما أردت أن أكتب فيه، لذلك قررت أن أرسل لك بكتابى هذا وفيه رأيى عن دراستك الخاصة بالمرأة، وكنت أحب أن تضيف إليها (المسلمة) ودعنا نبدأ حتى لا نضيع السطور ..

بادئ ذى بدء يجب أن نتفق على أننا نؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - رسولًا، وأن نتذكر حديثه - صلى الله عليه وسلم - (استوصوا بالنساء خيرًا فقد خلقن من ضلع أعوج وأعوج ما فى الضلع رأسه إن ذهبت لتقيمه كسرته وإن تركته ظل معوجًا) والآن لنسرد بعض النقاط التى تمس موضوعنا :

١ - مبدأ تحرير المرأة هو مبدأ استعمارى صهيونى هدف إلى ضرب الإسلام آنذاك - فترة ما بعد الحملة الفرنسية - فى صلبه وقوامه، وقام عليه كثير من أبناء الإسلام وغيرهم كقاسم أمين صاحب كتاب «تحرير المرأة» والذى كان من انحطاطه أن قال الشاعر شوقى :

ما بالكتـــاب ولا الحـــديث   إذا ذكرتهمــــا نكيـــر
حتـــى لنسأل هل تغـــار   على العقائد أم تُغير ؟!

وقول « محرم » :

أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغى   بقومك والإسلام ما الله عالم
نبذت إلينا بالكتـــاب كأنمـــا   صحائفه مما حملن ملاحم

وغيرهم مما أثارهم تطاول الكتاب على الحرمات وهدفه تحلل المسلمين من دينهم وأخلاقهم. وأخيرًا نسوق تلك الآية الكريمة « وَقَرْنَ فى بُيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيةِ الأولَى » الآية ٣٢ الأحزاب ..

٢ - المبدأ الداعى للتحضر والتمدن بخلع اللباس الإسلامى وأن نستبدل به يسمى (الموضة) هدفه واضح وصريح، قصد قتل حياء المرأة وإشاعة الإباحية السائدة فى المجتمعات الأخرى. وفى قصيدة للأزدى .. يقول :

أو لم يروا أن الفتـــاة بطبعهـــا   كالمـــاء لم يُحفظ بغيـــر إنـــاء
ما فى الحجاب سوى الحياء فهل   من التهذيب أن يهتكن سر حياء

ونسوق أيضًا تلك الآية برهانا ودليلًا يسكت أصوات السفـــور والخلاعة : « يَأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤمِنِينَ يُدنِينَ عَلَيهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أدنَى أن يُعرَفنَ فَلا يُؤذَينَ » « الآية ٥٩ الأحزاب » ..

٣ - مبدأ مساواة الرجل بالمرأة - عفوًا .. المرأة - بالرجل يهدف إلى تحطيم قوامة الرجال على النساء ولنقرأ قوله تعالى : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » الآية ٣٤ النساء ..

وقوله عليه الصلاة والسلام : (النساء ناقصات عقل ودين) . وعلى هذا فقد كان أسهل وأجدر على الله أن يجعل بنى آدم كلهم نساءً أو جميعهم رجالًا ما داموا ـ فى عرف هذا العصر ـ متساوون .

٤ ـ خروج المرأة للعمل بجوار الرجل لغير حاجة ، وإنما لإن ثبات الذات خطأ وكبيرة ، حيث تحدث الآثام وترتكب المعاصى تحت مسميات كالزمالة والصداقة والتعاون المتكامل بين الجنسين ، فالنساء ناقصات عقل ودين ، وقد قال عليه الصلاة والسلام (ما ولى قوم أمورهم لامرأة إلا ذلوا) وهكذا نرى لحكمة يراها رسولنا الكريم ـ الذى لا ينطق عن الهوى ـ أن المرأة غير صالحة لتولى أمور الحكم والوزارة والرئاسة ، والآن ندخل إلى لب القلب فى موضوعنا بأن المرأة ـ كما قلت ـ لا أحد يفهمها ، وأنها فى مجتمعنا مظلومة وفى ذلك كل الحق ، ولكن إلام يرجع هذا ؟ هل إلى طبيعة المرأة ؟ أم إلى استبداد الرجل ؟ ولنعرف الجواب نرجع إلى كلمة « مجتمعنا » وسنرى أن الإجابة أسهل ما يكون ، فالمجتمع اليوم يشهد حالة من التصدع والانقسام والانهيار ، حيث انقسم إلى فئتين إحداهما تعترف بالإباحية والأخرى تدعوا للحشمة والسلفية . والمرأة بما أنها من المجتمع فهى تائهة لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء فتضيع فى مفترق الطرق فتسقط فى وعاء الشيطان وتقسو وتثور حتى تخور ولا تجد ملجأ من الله إلا إلى الله . فالمرأة اليوم فى صراع مع هواها وفطرتها وهذا الصراع يولد لدى المرأة شخصية جديدة لا يألفها الرجل فيثور هو الآخر حتى تصبح المرأة مشكلة ولكن يصنعها المجتمع .

والحل إذن هو أن يكون مجتمعنا مجتمعًا إسلاميًا خالصًا أساسه لا إله إلا الله ، وقوامه الوحى المبين والشرع الحكيم . ولنتأمل ذلك بعيدًا عن العصبية التى زرعها فينا الغرب ولنرهل حقًا من الممكن أن تصبح المرأة مشكلة .. نصنعها نحن الرجال ؟

خاتمة ... طريق الشفاء .... علينا بورق الصبر وعروق الإخلاص نضعها فى إناء التقوى مع عصير التواضع ثم نصب عليها ماء الخشية ، ونوقد عليها نار الحزن ونصفيها بمصفاة المراقبة ونتناولها من كأس الصدق بملعقة الاستغفار ، ونبعد عن الحرص والطمع نشف من مرضنا بإذن الله ونعود إلى ديننا ونتصالح على ربنا صادقين مُصدقين أخيارًا .

وسلام على المتقين ـ والحمد لله رب العالمين

هـ . ع . ك الزقازيق محافظة الشرقية
السن ١٧ عامًا

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما تمعنت فى العنوان الذى اخترته لطرح فكرتك عن العلاقة بين الرجل والمرأة وجدت أنه صحيح وينطبق على هذه العلاقة الأبدية منذ قديم الأزل وحتى الآن . فالمرأة منذ القدم تعامل على أنها المخلوق الأدنى درجة من الرجل ، ومع الأسف ترسخ لديها ولدى الرجل هذا الإحساس على مر العصور حتى أصبح من المسلمات ، وثبت الوضع على هذا الحال ردحًا طويلًا من الزمان منذ أن وأد العرب الأوائل البنات ؛ لأنهن يجلبن العار ، وحتى يومنا هذا الذى تفرح فيه الأسر عندما يولد لها ذكر ، ويحدث العكس عند ولادة أنثى . وبرغم فرق كل هذه القرون بين الوضعين إلا أنه ما زال قائمًا مع الفارق ... لماذا؟

هل لأن الرجل شعر منذ القدم ومنذ بدء الخليقة [آدم وحواء] بخطورة المرأة عليه ، وكيف أنها استطاعت التأثير عليه فأكل من الشجرة المحرمة فتغير مصيره ، ومن يومها وهو يحاول كبتها وتحجيم دورها حتى لا يمنحها فرصة السيطرة والتأثير عليه مرة أخرى ، وحتى يشعرها بالدونية فلا تشاركه فى الحياة سوى الفراش فقط؟ أم هو انتقام آدم من حواء التى حرمته نعيم الجنة ، فتحول انتقامه على مر العصور إلى محاولات تقليل شأن المرأة حتى يراها ذليلة ، فحرمها التعليم والثقافة جزاء فعلتها التى لم يستطع نسيانها حتى الآن ؟ أم هل هو الفهم الخاطئ للدين الإسلامى الذى كرم المرأة كما لم يفعل دين آخر ، وساواها بالرجل أمام الله فى العبادة والحقوق والواجبات تجاه الدين ؟ الملاحظ أن وضع المرأة المتردى بشدة فى الدول الإسلامية أكثر كثيرًا من الدول الأخرى حتى تلك التى تنتمى للعالم الثالث ولا تدين بالإسلام ..

أنا لا أدافع عن المرأة ضد الرجل ، ولا عن الرجل ضد المرأة ، لأنهما وجهان لعملة واحدة ، ولا يستطيع أى منهما العيش بدون الآخر . ول كان الأمر كذلك لكان الله قادرًا على أن يخلقنا جميعًا من جنس واحد .. معاملة الرجل للمرأة هى التى خلقت كل هذه المشاكل ، ويجب أن تتغير هذه المعاملة ؛ فالمرأة الآن أصبحت متعلمة وتتحمل مسئوليتها كاملة جنبًا إلى جنب مع الرجل ، داخل منزلها وخارجه ، وأصبحت هناك العديد من الأسر التى تعمل فيها المرأة وتعول الأسر كلها نظرًا لظروف عديدة ، وانتشر هذا الوضع فى الآونة الأخيرة لدرجة أنه لم يعد من الأشياء الشاذة أو المستغربة فى مجتمعنا . فكيف والحال كذلك أن تعامل المرأة معاملة مهينة ...

والآن يأتى تيار يزعم أنه دينى يطالب بردة المرأة وعودتها لعصور انتهت بظروف حياتها المختلفة عن حاضرنا تمام الاختلاف ، ويفزع هذا التيار ـ هنا لا أقصد المتطرفين الذين يحملون البنادق ويرتدون الجلابيب ، فهناك شرائح عديدة ممن يُوصفون بالاعتدال يرددون شعارات ربما لا يدركون خطورتها ، ويروجون لها ، تطالب المرأة بالتخلى عن مكاسبها التى كسبتها عبر مشوار تنويرها الطويل ـ هذا التيار يفزع من مجرد ذكر المرأة وكأن المرأة كلها عورات ، وينسون أن المرأة هى التى ولدت وربت الرجال ، وينسون أنها نصف المجتمع ، وأن المرأة لو توفر لها المناخ المناسب لأنتجت وتقدمت وتقدم معها المجتمع ، وينسون أن الغرب (الملحد) لم يتقدم لأنه حجم دور المرأة وظلمها وحقرها !!!! من كل هذا أو أكثر أصبحت المرأة فى وقتنا الحاضر تتعامل مع الرجل بمنطق الذى هرب

من سجّانه وحصّل على حريته على الرغم من هذا السجان ـ والبعض يفزع من كلمة حرية ويفسرها على أنها الانحلال بعينه ـ وبرغم حصول المرأة على بعض الحقوق إلا أن المرأة تتصور أن هذه الحقوق انتزعتها من بين أنياب الأسد، لذلك فشعور الظلم والقهر لم ولن يتغير حتى يغير الرجل نظرته لنفسه أولًا ويثق بنفسه أكثر، ويغير نظرته للمرأة ويعاملها على أنها نصفه وأنها خلقت من ضلعه، وهذا أكبر تكريم لها وليس تقليلًا من شأنها كما يحلو للبعض أن يردد، فقد خُلق « آدم » من طين وخُلقت « حواء » منه هو ... ويحسب كثير من الرجال أن المرأة تسعى للمساواة بينها وبين الرجال، وهذا خطأ فلا توجد امرأة تتمنى أن تتساوى مع الرجل، إذ كيف يحدث ذلك وقد خلقنا الله مختلفين ؟ فقط تريد حرية عقلها وتريد تحرير قدرتها على الإبداع والانطلاق إلى آفاق الثقافة والفكر، وهذا ليس دعوة للمساواة أو الحرية كانحلال كما قد يتصور البعض، ولكنها دعوة لمنح المرأة حقها الطبيعى كإنسان بصرف النظر عن كونه رجلًا أو امرأة. وحين يتحقق هذا لن تصبح المرأة مشكلة بل هى بالعكس ستصبح سند. الرجل ورفيقه الأمين المحب وهذه هى المشكلة .. شكرًا ؟

أمنية المعادى

١٩٩٤/٩/١

★ ★ ★

هل لاحظتم ما تحمله الرسائل من آراء مختلفة ؟!..

هل قرأتم المشكلة بين السطور ؟!..

هل لاحظتم كيف أن الصراع محتدم بالفعل، حتى فى أعماق شباب، المفروض أنه جيل القرن الحادى والعشرين، بكل تفتّحه وإقباله على الحياة ؟!..

من المؤكّد أنكم قرأتم كل ما قرأته أنا، مما لم يرد فى سطور الرسائل ..

أنا أثق بذكائكم وقدرتكم على الفهم والاستيعاب ..

أما أنا، فقد شعرت بمتعة عجيبة، وأنا أطالع رسائلكم، لاختيار ما يتم نشره منها فى هذا العدد ..

لقد كشفت بينكم بعض المواهب الأدبية المدهشة، التى تحتاج لمن يتبناها ويرعاها، ويتعهدها برعايته، حتى تجد طريقها إلى عالم الأدب المنشور والمقروء ..

عودوا مرة أخرى لرسالة الصديق (إيهاب رضوان سعد الدسوقى)، ورسالة الصديقة (أمنية ـ المعادى)، وستدركون ما كنت أعنيه بعباراتى السابقة ..

ومن المؤكّد أننا سنكشف مواهب أخرى، وآراء أخرى، وستتفتّح أمامنا عشرات الأفكار والموضوعات، عندما ننشر رسائل أخرى فى كتب قادمة ..

كل ما عليكم هو أن تمنحونا بعض الوقت ..

وبعض الاهتمام ..

وإلى أن أطالع مزيدًا من الرسائل والآراء ، دعونا نأمل فى أن يجمعنا كتاب جديد ..

ولقاء جديد ..

د . نبيل فاروق

★ ★ ★

١ ـ صاعقة ..

هطلت الأمطار فى شدة ، فى تلك الليلة ، وانهمرت كالسيول ، فوق سيارة الدكتور (فريد) ، وهو ينطلق بها عائدًا إلى ذلك المستشفى القروى الصغير ، على مشارف مدينة (قنا) ، بعد أن انتهى منذ قليل ، من إسعاف شيخ مريض ، داهمته نوبة الربو وسط العاصفة ، فأرسل أبناءه وأحفاده لانتزاع (فريد) من فراشه ، فى الواحدة والنصف صباحًا ؛ لعلاجه من ذلك الضيق ، الذى يمزّق صدره ، ويجثم على أنفاسه ..

وعلى الرغم من الحركة الدائبة لمسّاحتى الزجاج الأماميتين ، إلا أن الرؤية بدت متعذّرة إلى حد كبير ، مع الظلام التام ، الذى يسود ذلك الطريق الفرعى الضيق ، والغزارة التى تنهمر بها الأمطار ، وتعجز معه المساحتان عن أداء عملهما بالكامل ، وخاصة مع سيارة من طراز قديم ، كتلك التى يمتلكها الدكتور (فريد) ، الذى امتلأت نفسه بمزيج من الحنق والغضب ، جعله يردّد فى عصبية :

ـ نوبة ربو فى طقس كهذا !.. لماذا لا تصيبهم تلك النوبات فى أوقات جميلة مشرقة ؟!.. لماذا تعود الممرضة إلى منزلها ، فى الخامسة مساء كل يوم ، وأبقى أنا لأقيم فى ذلك المستشفى الحقير ؟!.. لماذا ؟.. لماذا ؟.. لماذا ؟!..

قالها ، وهو يضرب مقود السيارة براحته ، ويميل إلى الأمام فى شدة ، حتى يكاد يلتصق بالزجاج الأمامى ، فى محاولة لرؤية الطريق ، مع استطرادته :

ـ حتى النساء لا يحلو لهنّ أن يضعن أطفالهنّ إلا بعد منتصف الليل .. وبالذات فى الليالى العاصفة الممطرة .. الكل يختار الوقت الذى يناسبه ، فيما عدا أنا .. أنا وحدى المطلوب منى أن أخضع لما يناسب الجميع .. أنا وحدى .

كان يشعر بالسخط ، لاضطراره للخروج ، فى قلب العاصفة ، على الرغم من إيمانه الشديد بضرورة تأدية واجبه ، وتلبية نداء المرضى ، فى أية ساعة من الليل والنهار ، وفى أية ظروف أو أحوال ، و ...

وفجأة ، توقّفت المسّاحتان عن العمل ، وتجمّدتا فى منتصف الزجاج الأمامى ، الذى غمرته الأمطار تمامًا ، فحجبت الرؤية عن عينى الدكتور (فريد) ، الذى هتف فى سخط :

ـ لا .. ليس الآن .

كان من المستحيل أن يواصل طريقه على هذا النحو ، لذا فقد مال بالسيارة جانبًا ، وأوقفها عند ما بدا له أنه جانب الطريق ، وجلس داخلها يزفر فى غضب ساخط ، ويقول :

ـ كنت أعلم هذا .. كنت أعلم أن ليلة بهذا الشكل لا تمضى بسهولة .. كنت أعلم هذا .

وصمت لحظات ، محاولاً هضم ثورته ، وامتصاص غضبه ، ثم رفع سترته فوق رأسه ، وغادر السيارة ، تحت الأمطار الغزيرة ، فى محاولة لإصلاح المسّاحتين ..

وعندما فعل ، انتبه إلى أن سيارته قد تجاوزت جانب الطريق بمترين أو يزيد ، وأنها تلتصق تقريبًا بأحد الأبراج المعدنية ، التى تحمل أسلاك الضغط الكهربى العالى ، لتغذية مدن وقرى الصعيد ، فتمتم بسخط أكبر :

ـ لن يصلح السير فى هذا الطقس ، بدون المسّاحتين .. يالها من ليلة !

كان صوت قطرات المطر الكبيرة ، وهى ترتطم بسترته ، التى وضعها فوق رأسه ، يثير عصبيته أكثر وأكثر ، وخاصة أن المساحتين أصرتا على جمودهما ، ورفضتا الانصياع لمحاولات إصلاحهما فى عناد ، حتى أنه صرخ فى النهاية :

ـ لماذا ؟.. لماذا أنا بالذات ؟..

ومع نهاية صرخته ، أضاء البرق المكان كله ، ودوت فرقعة عنيفة ، ورأى الدكتور (فريد) صاعقة هائلة تضرب أحد أبراج

الضغط العالى من بعيد ، وتجرى فى الأسلاك ببريق مخيف ، وكأنها تتجه نحو هدف واحد ..

نحوه مباشرة ..

* * *

ران الصمت التام على تلك الشركة الشهيرة للمقاولات والبناء ، عند أطراف مدينة (قنا) ، وراح البرق يسطع فى السماء ، ليعبر ضوؤه نوافذها الكبيرة ، ويضىء حجراتها بشدة لثانية أو أقل ، ثم ينحسر لتغرق فى ظلام تام ، فى تلك الساعات الأولى من الصباح ..

ومع سطوع البرق ، بدا جسد بشرى ، فى أحد الأركان ، يتحرّك فى توتر شديد ، داخل ردهات الشركة ، وهو يحمل مصباحًا يدويًا صغيرًا ، ويتجه مباشرة نحو حجرة المدير العام ، ثم يتوقّف أمام دولاب الملفات الخاص ، وينحنى ليفحص قاعدته فى اهتمام بالغ ..

كانت القاعدة تحوى نقشًا بسيطًا ، بدا وكأنه حلية فنية ، فى تصميم الدولاب ، إلا أن الرجل عالجها على نحو خاص ، فدارت حول نفسها ، مما سمح له بجذب درج سرّى فى القاعدة ، يرقد داخله ملف خاص ، اختطفه الرجل فى لهفة ، وراح يطالع الأوراق القليلة داخله فى توتر شديد ، وهو يغمغم :

ـ آه .. كنت أعلم هذا .

انهمك بضع دقائق فى مطالعة الأوراق ، على ضوء مصباحه اليدوى الصغير ، والبرق يسطع من النافذة الكبيرة خلفه ، و ...

وفجأة ، اعترض طريق الضوء ظل كبير ، انضمّ إليه فى سرعة ظل آخر ، فانتفض جسد الرجل ، وقفز تقريبًا ، وهو يدور حول نفسه ، ليواجه صاحبى الظلين ، فى نفس اللحظة التى أضاء فيها أحدهما الحجرة ، وهو يقول :

ـ ما الذى تفعله هنا يا (كريم) ؟

احتضن الرجل الملف فى شدة ، وهو يتراجع فى ارتياع ، هاتفًا :

ـ ماذا تريدان منى ؟

أجابه المدير العام فى غضب شرس :

ـ بل ماذا تريد منا أنت ؟.. ما الذى جعلك تتسلّل إلى مكتبى فى الثالثة صباحًا ، فى مثل هذا الطقس ؟.. هل كنت تتصوّر أننا سنقبع فى بيتينا ، ونتركك تفعل هذا ؟

تراجع (كريم) أكثر ، ولوّح بيده فى عصبية ، قائلاً :

ـ أنتما تتجاوزان القانون .. كنت أعلم هذا منذ فترة ، ولكننى لم أكن أملك الدليل .. إنكما تستخدمان مواد بناء غير صالحة ، وتقدمان الرشاوى والهدايا ، ليتجاوز ضعاف النفوس عن سرقاتكما ، ولكن المدارس التى تبنيانها ستنهار على رءوس الأطفال المساكين ، ولا يمكننى أن أسمح بهذا .

تقدّم المدير نحوه ، وخلفه مساعده ، والأخير يقول :

ـ تسمح لنا ؟!.. هل تظن أنه باستطاعتك أن تفعل ؟

صاح (كريم) :

ـ إننى أمتلك الدليل الآن .. هذا الملف يحوى كل الأرقام الحقيقية .. سأبلغ الشرطة بكل تجاوزاتكما .. لن أسمح بحدوث هذا قط .. إنها جريمة قتل ، مع سبق الإصرار والترصّد .

أخرج مساعد المدير يده من جيبه ، وهى تحمل مدية كبيرة ، فرد نصلها بحركة عنيفة ، وهو يقول :

ـ ما دمنا قد تحدّثنا عن القتل ....

لم يكن بحاجة لإتمام قوله ، فقد أطلّ المعنى من عينيه ، اللتين برقتا فى وحشية عجيبة ، وهو يتقدّم نحو (كريم) ، الذى صرخ :

ـ هل بلغ بكما الأمر هذا الحد ؟

ثم وثب جانبًا ، وفتح باب الحجرة ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها المساعد عليه ، وطعنه بالمدية فى شراسة ..

وانغرس نصل المدية فى كتف (كريم) ، إلا أن هذا لم يمنعه من العدو خارج الحجرة ، والدماء تنزف من جرحه فى غزارة ، فصاح المدير :

ـ أسرع خلفه يا (فوزى) .. لو بقى حيًا سيقضى علينا جميعًا .

زمجر (فوزى) فى وحشية ، كما لو كان ثورًا هائجًا ، وانطلق يعدو خلف (كريم) ، والدماء تتقاطر من نصل مديته الحاد ..

أما (كريم) ، فقد قطع الممر الطويل بقفزتين واسعتين ، وجسده كله ينتفض هلعًا ، ثم وثب داخل المصعد ، وضغط زر

الهبوط بأصابع مرتجفة ، وهو يحدّق فى ارتياع فى وجه (فوزى) ، الذى يعدو نحوه ، من نهاية الممر ..

وكان سباقًا بين باب المصعد وقدمى (فوزى) ..

وللوهلة الأولى ، بدا أن (فوزى) سيربح هذا السباق ، وستكون جائزته الكبرى هى روح (كريم) ، والملف السرى الذى يحمله ..

ولكن باب المصعد أكمل رحلته ، قبل ثانية واحدة من وصول (فوزى) ، وبدأت عملية الهبوط ..

ومع وقع أقدام (فوزى) ، وهو يقفز درجات السلم قفزًا ، فى محاولة للحاق بالمصعد ، راح قلب (كريم) يخفق فى عنف ..

إنهما لن يتركاه حيًا ..

لا يمكنهما أن يفعلا ..

الملف الذى بين يديه ، يثبت أنهما ارتكبا عدة جرائم ، قد يؤدى كشفها إلى سجنهما لفترة طويلة ، ومصادرة كل أموالهما ..

ومن المؤكد أنهما لن يسمحا بحدوث هذا أبدًا ..

وفى غمرة توتره ، راح يدير عينيه فى المصعد ، بحثًا عن مخبأ ، يمكنه أن يخفى فيه تلك الوثائق ، التى تدينهما ..

وفجأة ، لمح ذلك الطرف المنزوع ، من جدار المصعد ..

وبدون أن يمنح نفسه مهلة للتفكير ، جذب (كريم) الجدار الخشبى الرقيق ، وانتزع الوثائق من الملف ، ودسّها فى الفراغ الناشئ ، ثم أعاد الجدار إلى موضعه ، وضغطه بكل قوته ، حتى لا يشى بما يخفيه خلفه ، واحتفظ معه بغلاف الملف ..

وعندما بلغ المصعد الطابق الأرضى ، وانفتح بابه ، انطلق (كريم) يعدو بكل قوته ، ليغادر المبنى كله ، قبل أن يصل (فوزى) إليه ..

كان كل هدفه أن يبلغ سيّارته ، التى تركها على مسافة مائتى متر ، حتى تساعده على الفرار من المكان كله ، قبل أن يقع فى قبضتى (فوزى) ومديره (شعبان) ، ويلقى مصرعه غدرًا وانتقامًا ..

ولكن (فوزى) كان أكثر قوة وعنفوانًا ..

وعبر الشارع الخالى ، وتحت الأمطار الغزيرة ، راح (فوزى) يطارد (كريم) ، الذى تجاوز المنطقة المأهولة بالسكّان بالفعل ، وتجاوزها إلى الحقول المحيطة بالمدينة ، حيث أخفى سيارته ، و ...

ولكن (فوزى) لحق به ..

لم يدر كيف فعل هذا ، ولكنه وجد يده تمسك كتفه فجأة ، وسمع صوته الأجش يقول فى شراسة :

ـ هل تصوّرت أنك ستهرب منا ؟

قالها ، وهو يهوى بمديته على صدره ، فشعر (كريم) بألم بين ضلوعه ، وخفق قلبه فى عنف ، ودفع (فوزى) بكل قوته ، صارخًا :

ـ لا .. لا تقتلنى .

كان واثقًا من أن الطعنة لم تبلغ قلبه ، وإلا للقى مصرعه على الفور ، ولكنه كان يشعر بآلام مبرّحة ، وهو يحاول العدو مرة أخرى نحو سيارته ، وقد سيطرت على ذهنه فكرة واحدة ..

لا بد وأن يبلغ المسئولين بجرائمهما ..

لابد ..

وفى سخرية ، تركه (فوزى) يبتعد مترنحًا ، وهو يعلم أن إصابته لن تذهب به بعيدًا ، ووقف يراقبه ، وهو يمدّ مديته إلى الأمام ، ويترك لمياه الأمطار مهمة إزالة الدماء عنها ، حتى لحق به المدير ، وهو يلهث ، قائلا :

ـ لماذا تركته ؟

أجابه فى هدوء مخيف :

ـ اطمئن يا (شعبان) بك .. لن يذهب بعيدًا .

وكان محقًا فى قوله هذا ، فلقد تخاذلت قدما (كريم) ، ولم تعودا قادرتين على حمله ، قبل أن يبلغ سيارته بعدة أمتار ، فسقط على وجهه ، وسط الطين والماء ، وحاول أن يزحف نحو السيارة ، وتلك الفكرة لا تفارق ذهنه قط ..

من الضرورى أن يدفعا ثمن جريمتهما .

لا يمكن أن يفلتا ..

لم تكن الفكرة مستقرة فى ذهنه فحسب ، وإنما تحوّلت إلى رغبة عارمة ، ملأت كيانه كله ، وسيطرت على كل خلية من خلاياه ، وكل قطرة دم فى جسده ، حتى أنه لم يعد يهتمّ بكونه مقبلاً على الموت ، بقدر اهتمامه بأن يدفع (شعبان) و (فوزى) ثمن كل ما اقترفاه من جرائم ..

وفى عصبية ، صرخ (شعبان) :

ـ لا تتركه يا (فوزى) .. اقتله .. اقتله الآن .

فردّ (فوزى) مديته مرة أخرى ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى وحشية عجيبة :

ـ كما تأمر يا سيادة المدير .

قالها ، وتقدّم نحو (فوزى) ، و ...

وفجأة ، هوت تلك الصاعقة ، على برج الضغط العالى القريب ، ودوى صوت فرقعة رهيبة فى المكان ، وانقطع سلك من أسلاك البرج ، وهوى على البقعة التى سقط فيها (كريم) بالتحديد ..

وكان مشهدًا رهيبًا بحق ..

لقد سرى ضوء قوى فى السلك ، وانتفض جسد (كريم) فى عنف شديد ، وقفز من مكانه على نحو مخيف ، فى حين انطلق الضوء عبر الأسلاك ، حتى آفاق البصر ..

ولم تمض ثانية أو ثانيتين ، حتى تلاشى كل هذا ، واسترخى جسد (كريم) وسط بركة من المياه ، وقد فقد كل أثر للحياة ..

ولثوان ، ظلّ (شعبان) و (فوزى) صامتين ، يحدّقان فى جثة (كريم) ، قبل أن يهتف الأوّل :

ـ الملف .. أحضر الملف .

أسرع (فوزى) نحو الجثة ، وانتزع منها غلاف الملف ، قبل أن يهتف فى دهشة تمتزج بالسخط :

ـ الملف خال .. لقد اختفت كل الأوراق .

صرخ (شعبان) :

ـ اختفت ؟!.. أين .

تلفّت (فوزى) حوله ، وهو يهتف :

ـ لست أدرى .. لقد كنت أراقبه طوال الوقت .. لست أدرى حقًا أين هى .

صاح (شعبان) فى ثورة :

ـ لا تقل لى هذا .. ابحث عنها .. ابذل قصارى جهدك للبحث عنها .. أنت تعلم أن فيها حياتنا .. ابحث وإلا انتهى أمرنا تمامًا .

ولم يضع (فوزى) لحظة واحدة ..

لقد انهمك فى البحث عن الوثائق المفقودة ، دون أن يبدى أدنى اهتمام بتلك الجثة المسجاة على قيد نصف المتر منه ، وقد انفتحت عيناها عن آخرهما ، وخلتا من ذلك البريق المعهود .. بريق الحياة ..

* * *

« هل تسمعنى ؟!.. استيقظ يا رجل .. استيقظ .. » ..

تردّد النداء فى أذنيه خافتًا ، وخُيِّل إليه أنه قد استعاد وعيه بالفعل ، إلا أنه ظلّ راقدًا فى مكانه ، صامتًا وساكنًا كالموتى ، فى حين التقطت أذناه الصوت نفسه ، وصاحبه يستطرد :

ـ إنها أعجب واقعة سمعتها فى حياتى كلها .. تصوّر يا دكتور (عادل) مع عنف العاصفة أمس ، لم تسقط على الأبراج سوى صاعقة واحدة ، وعلى الرغم من هذا فقد أصابت رجلين فى آن واحد .

ارتفع صوت آخر ، يهتف فى دهشة :

ـ رجلان فى آن واحد ؟!.. وكيف يمكنكما الجزم بهذا ؟

أجاب الصوت الأوّل :

ـ هذا هو التفسير المنطقى الوحيد .. سقوط الصاعة وانتشارها لا يستغرق أكثر من ثانيتين على الأكثر ، وعندنا اثنان أصابتهما الصاعقة الوحيدة ، التى هوت على الأبراج أمس .. ألديك تفسير آخر ، سوى أنها أصابتهما فى آن واحد ؟

قال صاحب الصوت الثانى فى حيرة :

ـ يا لها من مصادفة عجيبة !

أجابه صاحب الصوت الأوّل :

ـ أعتقد أنها لا تحدث سوى واحد فى كل مليار على الأقل .. بل والمصادفة الأكثر إثارة للدهشة ، هى أن أحدهما ظلّ على قيد الحياة ، بعد أن أصابته صاعقة ، قفزت بدقّات قلبه إلى الحد الأقصى .

قال صاحب الصوت الثانى فى رهبة :

ـ فى رأيى أنها معجزة ، على أى مقياس طبى .

لحظتها شعر بشىء من الإرهاق ؛ لأنه يستمع إليهما بهذه السلبية ، فبذل قصارى جهده ليتنحنح ، إلا أن هذا المجهود لم يسفر إلا عن نوبة سعال محدودة ، جعلت الطبيبين يلتفتان إليه فى لهفة ، وهتف الدكتور (منعم) :

ـ هل استعدت وعيك ؟

أراد أن ينطق بشىء ما ، إلا أن لسانه عجز عن هذا فى البداية ، ففتح عينيه فى بطء ، وحدّق فى وجهى الرجلين ، اللذين تهلّلت أساريرهما فى ارتياح ، وربّت أحدهما على كتفه ، قائلاً :

ـ إنها لمعجزة أن تستعيد وعيك بهذه السرعة .. هل استعدت قدرتك على التفكير ، أم أن ذهنك لا يزال مشوّشًا ؟

بذل طاقة أكبر هذه المرة ، ونجح فى أن يغمغم :

ـ ليس تمامًا .

أدهشه ذلك الصوت ، الذى خرج من بين شفتيه ، فقد بدا له مختلفًا عن صوته الذى يعرفه ، ولكنه عزى هذا لحالة الضعف التى يشعر بها ، والتى لاحظها الطبيبان ، فهمس أحدهما متعاطفًا :

ـ لا بأس .. لا تبذل جهدًا كبيرًا .. ستستعيد كل شىء تدريجيًا .

قاوم ليقول :

ـ لا توجد مشكلة .. أنا أذكر كل شىء .. صحيح أننى لا أذكر أمر هذه الصاعقة ، ولكننى أعرف جيدًا من أنا .. أنا (كريم عبد الرحمن) .. مدير حسابات شركة الأمل للمقاولات .

تبادل الطبيبان نظرة ملؤها الدهشة ، قبل أن يحدّقا فى وجهه طويلاً ، ثم ينتقل بصراهما إلى الاسم المدوّن على تذكرته الطبية ..

اسم الدكتور (فريد خالد) ..

زميلهما القديم .

* * *

٢ ـ الازدواج ..

من هو بالضبط ؟!..

طرح عقله السؤال على نفسه ، بعد ثانية واحدة من نطقه لاسم (كريم) ..

لقد نطق الاسم ، وهو واثق تمامًا مما يقول ..

كان لحظتها (كريم عبد الرحمن) ..

لم يكن لديه أدنى شك ..

ولكنه لم يكد ينطق الاسم ، حتى أدرك فجأة أنه ليس اسمه ..

اسمه الحقيقى هو الدكتور (فريد) ..

الدكتور (فريد خالد) ..

وفى دهشة ، هتف :

ـ مهلاً .. يبدو أننى أخطأت .

تبادل الطبيبان نظرة أخرى ، تفيض بمزيد من الدهشة ، ثم جلس الدكتور (منعم) على طرف فراشه ، ومال نحوه ، يسأله فى رفق :

ـ أخطأت ؟!.. وفيم أخطأت ؟

أجابه متوترًا :

ـ اسمى ليس (كريم) .. أنا (فريد) ..

وفجأة ، داهمه ذلك الشعور بالحيرة ..

أهو (فريد) حقًا ؟!..

لماذا يشعر إذن بأنه (كريم) .. أيضًا ؟!

أى شعور عجيب هذا ؟!

إنه شخصان فى جسد واحد ..

شخصان لا يتصارعان فى أعماقه ، بل يتعايشان فى تناغم عجيب ..

وفى حيرة ، رفع عينيه إلى الدكتور (منعم) ، وغمغم :

ـ أنا (فريد) .. أليس كذلك ؟

تطلّع إليه الدكتور (منعم) لحظات فى صمت ، ثم ابتسم ابتسامة حائرة ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .. أنت (فريد) .. أنت زميلى (فريد خالد) .

انتقلت الحيرة من ابتسامة الدكتور (منعم) إلى رأسه هو ، وعاد ذلك السؤال يثب إلى عقله ..

ـ من أنا حقًا ؟!..

(فريد) أم (كريم) ؟!..

وفى لهفة ، سأل :

ـ هل يمكننى استعارة مرآة ؟!.. أريد أن أنظر إلى وجهى .

تبادل الطبيبان نظرة أخرى ، قبل أن يقول الدكتور (عادل) فى حماس :

ـ بالطبع .. يمكنك هذا .

وأسرع إلى الحمام الملحق بالحجرة ، وانتزع مرآة الحائط الصغيرة ، وعاد بها إليه ، وهو يقول لاهثًا ، وكأنما بذل جهدًا عنيفًا :

ـ ها هى ذى .

حدّق فى المرآة لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ نعم .. أنا (فريد) .

تطلّع إليه الدكتور (منعم) لحظات فى صمت ، ثم سأله :

ـ ما الذى يربكك بالضبط ؟

تنهّد (فريد) ، وهو يجيب :

ـ لست أدرى .. شعور عجيب فى أعماقى .. أشعر وكأننى أعانى من ازدواج فى الشخصية .. وكأن شخصًا آخر يسكن جسدى .. أنا فى لحظة (فريد) الذى أعرفه ، وفى اللحظة الأخرى

شخص آخر ، لم أسمع به فى حياتى من قبل قط .. شخص اسمه (كريم عبد الرحمن) .. ولكن الأعجب أن هذا الشخص ليس مجرّد اسم .. إنه مجموعة من الذكريات ، مضطربة إلى حد ما ، وحائرة كثيرًا ، ولكنها فى لحظة ما يترابط بعضها مع البعض ، فيخيّل إلىّ أننى هو .

أومأ الدكتور (منعم) برأسه متفهمًا ، وقال للدكتور (عادل) :

ـ ألم أقل لك إنها معجزة ؟

نقل (فريد) نظره بينهما ، وهو يقول فى توتر :

ـ أية معجزة ؟.. أننى ظللت على قيد الحياة ؟!

ابتسم الدكتور (منعم) ، وهو يقول :

ـ يبدو أن الأمر لن يقتصر على هذا .. هل تعلم .. أمس أصابتك صاعقة قوية ، فى أثناء العاصفة ، وألقت بك عشرة أمتار ، إلى الجانب الآخر من الطريق ، ولقد حدث الشىء نفسه مع رجل آخر ، فى نفس اللحظة ، ولكن الصاعقة التى أصابته لم تكتف بإلقائه بعيدًا .. بل لقد قتلته على الفور .

سأله (فريد) فى توتر أكثر :

ـ وما المعجزة فى هذا ؟

صمت الدكتور (منعم) ، وهو يهزّ رأسه ، فى حين اندفع الدكتور (عادل) ، يقول :

ـ المعجزة هى أن هذا الآخر ، الذى لقى مصرعه إثر الصاعقة ، هو (كريم) .. (كريم عبد الرحمن) ، مدير حسابات شركة الأمل للمقاولات .

وكانت صدمة لـ (فريد) ..

صدمة عنيفة ..

* * *

« ماذا تعنى بأنك لم تعثر على الوثائق بعد ؟!.. »

هتف (شعبان) بالعبارة فى عصبية غاضبة ، ولكن مساعده (فوزى) استقبل ثورته بهدوء مستفز ، وهو يجيب :

ـ لم أعثر على أدنى أثر لها .. هكذا ببساطة .. بحثت طويلاً ولم أجدها .. ما الذى يعنيه هذا فى رأيك ؟!

ضرب المدير سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول فى غضب :

ـ هل تسخر منى يا رجل ؟!.. ألا تدرك أن هذه الوثائق تديننا معًا ؟

أجابه مساعده بنفس الهدوء المستفز :

ـ أدرك هذا جيدًا ، ولكننى لا أرتجف خوفًا مثلك .

تراجع المدير ، قائلاً فى دهشة :

ـ لا ترتجف مثلى ؟

أجابه الرجل ، فى شىء من الشراسة :

ـ بالتأكيد .. إننى أزن الأمور بعقلى ، لا بعواطفى ومخاوفى .. لقد حصل (كريم) على الملف أمس فقط ، ونحن أطبقنا عليه ، قبل حتى أن يقرأه جيدًا ، ولم تكن لديه الفرصة لتصويره ، أو نقل بياناته إلى أى شخص آخر ، ثم لقى مصرعه أمام أعيننا ، بعد مطاردة محدودة ، وبعدها اختفت الوثائق .. أى خطر فى هذا

إذن ؟!.. لو أننا نعجز عن العثور على الوثائق ، فسيعجز أى شخص غيرنا .. أليس كذلك ؟

تراجع المدير فى مقعده ، وحاول أن يزن الأمر فى رأسه ، وهو يتمتم :

ـ ولكن ماذا لو عثر عليها شخص آخر بمحض الصدفة ؟

ابتسم (فوزى) فى سخرية ، قائلاً :

ـ أية صدفة هذه ؟!.. ثم أنه حتى يعثر عليها شخص ما بمحض الصدفة ، نكون قد اتخذنا من الإجراءات ما يجعلها لا تساوى قيمة الورق المكتوبة عليه .

اعتدل المدير فى توتر ، وهو يسأله :

ـ أية إجراءات ؟

انفرجت شفتا (فوزى) ، وهمّ بقول شىء ما ، لولا أن قاطعه صوت سكرتيرة المدير ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهى تقول :

ـ الرائد (عبد الله) ، من المباحث الجنائية ، يطلب مقابلتك يا سيادة المدير .

ارتجف جسد (شعبان) وصوته ، وهو يقول :

ـ من الـ ... المباحث الـ .. الـ ..

أزاحه (فوزى) فى صرامة ، وهو يجيب السكرتيرة فى هدوء :

ـ دعيه يتفضل بالدخول .

ثم التفت إلى المدير ، واستطرد فى حدة :

ـ تماسك يا رجل .. لا شىء يمكن أن يدينك .. إنه مجرّد استجواب روتينى .. مدير حساباتنا لقى مصرعه ، ومن الضرورى أن يأخذوا أقوالنا .

أومأ (شعبان) برأسه فى توتر ، مغمغمًا :

ـ سأبذل قصارى جهدى .. سأبذل قصارى جهدى .

دخل الرائد (عبد الله) إلى الحجرة فى هدوء شديد ، ولكن نظراته بدت أشبه بأشعة (رونتجن)(*) ، التى تخترق الأجساد ، وتغوص فى الأعماق ، حتى أن (شعبان) ارتجف على الرغم منه ، وهو يصافحه قائلاً :

ـ مرحبًا بك يا سيادة الرائد .. ترى ما سر هذه الزيارة ؟

أسرع (فوزى) يقول مبتسمًا :

ـ لا يوجد سر يا (شعبان) بك .. إنه أمر طبيعى أن يزورنا (عبد الله) باشا ، للتحقيق فى مقتل (كريم) ، رحمه الله .

صافح (عبد الله) (شعبان) طويلاً ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة بنظراته النافذة ، حتى كاد الرجل ينهار أمامه ، قبل أن يدير عينيه إلى (فوزى) ، ويقول فى هدوء :

ـ من الواضح أنك رجل ذكى يا أستاذ (فوزى) .

شعر (فوزى) بقلق مبهم للعبارة ، وهو يصافحه ، قائلاً :

(*) أشعة رونتجن : أشعة كشفها الألمانى (فيلهلم كونراد رونتجن) (١٨٤٣ ـ ١٩٢٣ م) ، للكشف عن الأعضاء الداخلية للجسم ، وتعرف أيضا باسم الأشعة السينية ، أو أشعة إكس ، ولقد نال عنها (رونتجن) جائزة (نوبل) للفيزياء عام ١٩٠١ م .

ـ أشكرك يا (عبد الله) باشا ، ولكننى لا أعتقد نفسى كذلك .

رمقه الرائد (عبد الله) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

ـ ولكن استنتاجك جاء مطابقًا للحقيقة .. أنا هنا بالفعل للتحقيق فى حادث مصرع (كريم عبد الرحمن) ، مدير حسابات الشركة .

سأله (شعبان) فى توتر ملحوظ :

ـ وما شأننا نحن بمصرعه ؟

رمقه (عبد الله) بنظرة أخرى فاحصة ، قبل أن يجيب :

ـ لكم شأن بالتأكيد ، فالقتيل كان مديرًا لحسابات شركتكم ، ولقد لقى مصرعه على بعد مائتى متر منها ، وفى ليلة يدهشنى أن وجد سببًا للخروج من منزله فيها .. ألا يثير كل هذا شيئًا من التساؤل لديكم ؟

أجابه (فوزى) فى سرعة :

ـ بالطبع .. لقد أدهشنا هذا كثيرًا ، وكان (شعبان) بك يسألنى منذ قليل ، عن السبب الذى دفع (كريم) للخروج من منزله ، فى طقس ردىء كهذا ، ولكننا لم نجد جوابًا .

صمت الرائد (عبد الله) لحظات ، وهو ينقل بصره بينهما ، قبل أن يقول :

ـ ما الذى يدفع أى شخص لقتل رجل مثل (كريم) فى رأيكما ؟

ارتبك (شعبان) ، وهو يبحث عن جواب ، فى حين قال (فوزى) فى هدوء :

ـ السرقة .. أعتقد أن سبب الجريمة هو السرقة .

هزّ الرائد (عبد الله) كتفيه ، وهو يقول :

ـ ربما كان هذا صحيحًا ، فقد اختفت حافظة القتيل ، ولكن العجيب أن القاتل المجهول ، الذى ارتكب جريمة قتل ، فى طقس ردىء كهذا ، وسرق حافظة القتيل ، تجاهل تمامًا الخاتم الذهبى الكبير فى إصبعه ، والذى يفوق ثمنه كل ما تحويه الحافظة .

ابتسم (فوزى) ، وهو يقول :

ـ قاتل غبى .

قال (عبد الله) فى سرعة :

ـ أو متسرّع .

ثم استدرك ، وهو يرمقهما بنظرة جديدة :

ـ أعنى أنه كان يؤدى عمله فى سرعة ، ليثبت وقوع السرقة فحسب .

ارتجفت أصابع (شعبان) فى شدة ، فى حين حافظ (فوزى) على هدوئه ، وهو يقول :

ـ أتعنى أن الشخص الذى ارتكب الجريمة ، حاول أن يجعل الأمر أشبه بالسرقة لهدف ما ؟

ابتسم (عبد الله) فى غموض ، وهو يقول :

ـ يبدو أن الأمر يحتاج إلى تصحيح بسيط ، فسبب وفاة (كريم) ، الذى حدّده الطب الشرعى ، هو الصاعقة التى أصابت جسده ، وهذا لا يمنع من أن إصاباته كان من الممكن أن تؤدّى إلى وفاته ، لو أمهلته الصاعقة بعض الوقت .

قال (شعبان) مرتجفًا :

ـ هل خرج تقرير الطب الشرعى بهذه السرعة ؟

ورفع (فوزى) حاجبيه ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يضيف :

ـ كنت أظن أن الطب الشرعى يستغرق وقتًا أطول ، فى مثل هذه الأمور .

قال الرائد (عبد الله) فى برود :

ـ مخطئ أنت فى ظنك هذا .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين الهاتف الخاص ، على مكتب المدير ، الذى التقط سمّاعته ، وهو يقول فى توتر :

ـ من المتحدّث ؟

وارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يناول السمّاعة إلى الرائد (عبد الله) ، قائلاً :

ـ إنها مكالمة لك .. كيف عرفوا أنك هنا ؟

التقط الرائد (عبد الله) سمّاعة الهاتف ، وهو يقول :

ـ لنا أساليبنا .

ووضع السمّاعة على أذنيه ، وهو يعلن شخصيته ، ثم صمت بضع لحظات ، ليستمع إلى محدّثه ، قبل أن يرتفع حاجباه فى دهشة ، ويهتف :

ـ (كريم) ؟!.. ماذا ؟!.. أأنت واثق من هذا ؟

تفجّر مزيج من الدهشة والقلق فى أعماق (شعبان) و (فوزى) وتطلّعا إليه فى توتر شديد ، وهو يعاود الصمت ، ويستمع فى اهتمام ، ثم يضيف :

ـ نعم .. سأحضر على الفور .

ثم أنهى الاتصال ، والتفت إلى الرجلين ، وهو يبتسم ابتسامة غامضة ، ويقول :

ـ يبدو أن الاستجواب لن يقتصر عليكما ، وأنه سيمتدّ إلى آخر شخص يمكنكما توقّعه .. إلى (كريم) .. (كريم عبد الرحمن) نفسه ..

وكانت صدمة مروّعة للرجلين ..

* * *

انعقد حاجبا الرائد (عبد الله) فى شدة ، وهو يستمع إلى الدكتور (منعم) ، حتى انتهى هذا الأخير من روايته ، وهو يلهث فى انفعال ، فتنهّد (عبد الله) ، وقال :

ـ شىء لا يصدّقه عقل .

هتف الدكتور (منعم) فى حماس :

ـ ولكنها الحقيقة ، على الرغم من غرابتها ، ومن أنك لن تعثر على مثيل لها فى أى مرجع علمى ..

أشار إليه الرائد (عبد الله) ، وهو يقول :

ـ هل تحاول إقناعى بأن روح (كريم) قد انتقلت بوسيلة ما إلى جسد الدكتور (فريد) ، لمجرّد أن صاعقة أصابتهما فى آن واحد .

هتف الدكتور (عادل) :

ـ محال أن يدّعى أحد هذا أيها الرائد .. الروح سر من أسرار الخالق (عزّ وجلّ) ، وما من طاقة فى الكون يمكنها نقلها ، من جسد إلى آخر .. إننا نتحدّث عن الأفكار والذكريات .

واندفع الدكتور (منعم) يكمل فى حماس :

ـ بالضبط .. لقد أصابت الصاعقة الرجلين فى آن واحد ، وعبر واحد من أسلاك الضغط الكهربى الشديد ، وفى اللحظة التى أصابتهما فيها ، كان (كريم) هذا يحتضر ، ومن المؤكّد أن لحظة الاحتضار تختلف عن غيرها من لحظات حياة الإنسان ، ففيها تتركّز أفكاره عند نقطة واحدة ، وهى فى المعتاد أهم نقطة فى حياته .. إنها فكرة تفوّقت فى عقله على رهبة الموت ، فسيطرت على كيانه كله ، وهذه الفكرة هى التى انطلقت ، عبر طاقة الصاعقة ، من عقل (كريم) ، إلى عقل الدكتور (فريد) .

صمت الرائد (عبد الله) بضع لحظات ، وهو يحاول استيعاب الموقف ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، مكرّرًا عبارته السابقة :

ـ شىء لا يصدّقه عقل .

ثم رفع عينيه إلى الطبيبين ، مستطردًا :

ـ وهل يمكننى مقابلة الدكتور (فريد) هذا ؟

أجابه الدكتور (منعم) :

ـ بالتأكيد .. ولقد اتصلت بكم ، لأننى كنت أرغب فى أن تتمّ هذه المقابلة فى أسرع وقت ، خشية أن تتلاشى تلك الذكريات من رأس (فريد) ، قبل أن تحصلوا منه على بغيتكم .

سأله الرائد (عبد الله) :

ـ وما الذى تتوقّع أن نحصل عليه منه ؟

أجابه الدكتور (عادل) بسرعة :

ـ على اسم قاتل (كريم) على الأقل .

ازداد انعقاد حاجبى الرائد (عبد الله) ، وهو يقول :

ـ أتظن هذا ممكنًا ؟

هزّ الدكتور (عادل) كتفيه ، وقال :

ـ يمكنك أن تحكم بنفسك .

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كان الرائد (عبد الله) يقف أمام الدكتور (فريد) ، الذى بدا شديد التوتر والاضطراب ، وهو يقول :

ـ لماذا أردت مقابلتى أيها الرائد ؟.. هل أصبحت الإصابة بصاعقة عشوائية جريمة فى نظر القانون .

ابتسم (عبد الله) ، وهو يقول :

ـ إنك لست متهمًا يا دكتور (فريد) .. بل يمكننا اعتبارك شاهدًا .

قال (فريد) فى عصبية :

ـ شاهد على أى شىء .. إننى لم أر شيئًا قط .

قال (عبد الله) ، فى شىء من الحزم :

ـ ولكنك تعرف ما أصاب (كريم عبد الرحمن) .

لم يكد (فريد) يسمع الاسم ، حتى تراجع فى حدة ، وشعر بألم فى كتفه ، ثم فى صدره ، ووجد نفسه يهتف :

ـ لا .. لا تقتلنى .

ارتسمت الدهشة على وجه (عبد الله) ، وهو يقول :

ـ من هذا الذى تناشده ألا يقتلك يا دكتور (فريد) ؟

دخلت الممرضة فى هذه اللحظة ، وهى تحمل الدواء ، وقالت :

ـ موعد الدواء يا دكتور (فريد) .

قفز (فريد) إلى الخلف مذعورًا ، وهو يهتف :

ـ لا .. لن تحصلا على الملف .

قالت فى دهشة :

ـ أى ملف ؟!

أما الرائد (عبد الله) ، فقد أشار إليها فى صرامة ، قائلاً :

ـ اتركى الدواء هنا ، وانصرفى .. هيّا .

ثم التفت إلى (فريد) ، يسأله فى انفعال :

ـ أى ملف يا دكتور (فريد) ؟!.. من يحاول قتلك ؟

ارتسمت الحيرة على وجه (فريد) ، وهو يشير فيما حوله فى شرود ، قائلا :

ـ لست أدرى .. كان هناك رجلان ، يحاولان انتزاع الملف منه .. أحدهما طعنه فى كتفه .. ثم فى صدره .. إنه يموت .. ثم .. ثم ..

وقفز من مكانه فجأة ، صارخا :

ـ آه .. الصاغقة .

ثم انتفض فى عنف ، ودارت عيناه فيما حوله فى حيرة ، وهو يغمغم :

ـ ماذا ؟... ماذا حدث ؟

حدّقت الممرضة فيه بدهشة بالغة ، فى حين ربّت (عبد الله) على كتفه ، قائلا :

ـ اهدأ .. اهدأ يا دكتور (فريد) .. كل شىء على ما يرام .. اهدأ .

تطلّع إليه (فريد) بعينين زائغتين مرهقتين ، وهو يقول :

ـ ما ... ماذا حدث ؟

لم تنتظر الممرضة لتسمع باقى الحديث ، وإنما أسرعت تغادر الحجرة ، وهرعت إلى أقرب هاتف ، وأدارت قرصه فى توتر شديد ، ولم تكد تسمع صوت محدّثها ، حتى همست فى انفعال ، وهى تتلفّت حولها :

ـ (فوزى) .. يبدو أن ما أخبرتنى به حقيقى .. ذلك الطبيب المصاب يعرف كل ما حدث .. لقد رآك تقتل (كريم) .. لابد أن تتخلّص منه ، قبل أن يدلى بشهادته رسميًا .. لابد .

أجابها (فوزى) بهدوئه المستفز :

ـ لا تقلقى يا زوجتى العزيزة .. كل شىء سيسير على ما يرام .

وأنهى الاتصال ، وهو يلتفت إلى (شعبان) ، ويستطرد فى صرامة وحشية :

ـ سأقتل ذلك الطبيب .

وانعقد حاجباه على نحو مخيف ، وهو يستطرد :

ـ الليلة .

والتمعت مديته فى قبضته .

* * *

٣ ـ البديل ..

« حاول أن تتذكّر يا دكتور (فريد) .. حاول .. »

قالها الرائد (عبد اللّه) فى توتر شديد ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجه (فريد) ، فهتف الدكتور (منعم) :

ـ ليس بهذا الأسلوب أيها الرائد .. إنك تتجاوز حدود التعامل مع المصاب .

زفر (عبد اللّه) فى حدة ، وقال فى عصبية :

ـ أنت قلت إنه من الضرورى أن نحصل على ما لديه بسرعة ، قبل أن ينساه .

قال الدكتور (منعم) فى صرامة :

ـ ولكنه لن يحتمل هذا الاستجواب العنيف .. إنك تستجوبه منذ أكثر من أربع ساعات ، والساعة الآن التاسعة مساءً ، وهو يحتاج حتمًا إلى الراحة ، بعد ما أصابه .

هتف به (عبد اللّه) :

ـ وهل تعتقد أن ما أفعله سهل أو بسيط ؟!.. لو أننى أخبرت رؤسائى أننى قضيت يومى أستجوب شخصًا ، حلّت فى رأسه ذكريات شخص آخر ، لاتهمونى بالحماقة أو الجنون .. ثم هل تعتقد أن أية محكمة فى العالم ، يمكنها أن تأخذ بأقوال شخص مثله ، اعتمادًا على هذه النظرية ؟.. هراء .. إنهم سيطلبون إحالته

إلى مستشفى الأمراض العقلية ، للتيقُّن من عدم وجود خلل بدماغه ، بعدما أصابه .

انعقد حاجبا (فريد) ، وهو يقول فى غضب :

ـ لماذا ترهقني باستجواباتك إذن ؟

أجابه (عبد الله) فى عصبية :

ـ أريد طرف خيط .. أى طرف خيط ، يمكن أن يقودنى إلى سر مقتل (كريم) .. إنك تحدثت عن شخص ، أو شخصين حاولا قتله ، وعن ملف ما .. وحديثك هذا يتوافق مع شكوكى .. إننى أعتقد أن (كريم) حصل على دليل يدين صاحب شركة المقاولات ، التى يعمل بها ، وأن هذا الأخير استأجر شخصًا ليقتله ، وهذا الشخص طعنه بالفعل ، وكاد يقتله ، لولا أن سبقته إليه الصاعقة .

قال الدكتور (منعم) فى صرامة :

ـ كفى أيها الرائد .. لن أسمح لك بإرهاقه أكثر من هذا .

أجابه (عبد الله) فى حدة :

ـ حاول أن تفهم أيها الطبيب .. هذا الرجل يحمل مفتاح حل لغز جريمة كبيرة ، وأنا أقاتل لانتزاع هذا المفتاح منه .. إنها المعركة التقليدية بين القانون والجريمة ، وفوزى فيها لن ....

هتف (فريد) فجأة :

ـ (فوزى) .. لا يا (فوزى) .. لا تقتلنى .. لا .

التفت إليه (عبد الله) فى حركة حادة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ (فوزى) ؟!

بدا الشرود فى عينى (فريد) ، وهو يلوّح بيده ، هاتفًا :

ـ لا تجعله يقتلنى يا (شعبان) بك .. أرجوك .

وهنا صاح (عبد الله) فى حماس :

ـ (شعبان) و (فوزى) .. كنت أتوقّع هذا .. كنت أتوقّعه .

انتفض (فريد) فجأة ، وحدّق فى وجهه بدهشة ، قبل أن يسأله :

ـ كنت تتوقّع ماذا ؟

أمسك (عبد الله) كتفيه فى انفعال ، هاتفًا :

ـ رائع يا رجل .. لقد كشفت الحقيقة ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وصمت وهلة ، ثم استطرد بشىء من الضيق ، وقد فتر حماسه بغتة :

ـ ولكن بلا دليل .

ألقى الدكتور (منعم) نظرة قلقة على (فريد) ، الذى تصبّب عرقًا ، ثم قال فى حدة :

ـ كفى أيها الرائد .. كفى .. لقد تجاوزت حدودك بشدة هذه المرة .. ألم تر ما أصاب الدكتور (فريد) ؟.. إنه يكاد يفقد وعيه .. لن يحتمل كل هذا يا رجل .

تطلّع الرائد (عبد الله) إلى الدكتور (فريد) لحظة ، ثم تنهّد قائلاً :

ـ فليكن .. سنؤجّل باقى الاستجواب للغد .

ونهض ليغادر الحجرة ، ثم توقّف ، واستدار ينظر إلى (فريد) ، مستطردًا :

ـ نم ملء جفنيك يا رجل .. أريدك منتعشًا غدًا ، فسيطول حديثنا كثيرًا .

رقد (فريد) على فراشه بالفعل ، وراقب الجميع وهم يغادرون حجرته ، وذهنه يحمل فكرة عجيبة ، تسيطر على رأسه فى إلحاح ..

فى إلحاح شديد ..

* * *

أشارت عقارب الساعة إلى تمام منتصف الليل ، فى نفس اللحظة التى تسلّل فيها (فوزى) إلى المستشفى ، واستقبلته زوجته ، وهى تهمس فى توتر :

ـ أسرع يا رجل .. إنه موعد عشاء الأطباء .. حاول أن تتم مهمتك وتغادر المكان خلال ربع الساعة فحسب .

أجابها وهو يمسك مديته فى قوة :

ـ لست أحتاج لأكثر من دقائق خمس .

مطّت شفتيها ، وهى تحثّ الخطا معه ، عبر الممر الطويل ، مغمغمة فى سخط :

ـ المفروض أن يعيد (شعبان) بك النظر ، فى النسبة التى تتقاضاها من هذا العمل .. إنك تقوم بكل الأعمال الخطيرة ، وهو يقبض المبلغ الأكبر .

أجابها فى صرامة :

ـ بدونه لن نحصل على شىء .

كرّرت فى حدة :

ـ ولكنك تتحمّل الخطر وحدك .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ أتظنين هذا .. إنه منهار أكثر من الجميع .. مثله لم يُخلق لمثل هذه الأعمال .. إنه يجيد عقد الصفقات الكبيرة فحسب ، أما حماية هذه الصفقات ، فهى مسئوليتى أنا .

قالت متوترة :

ـ مقابل عشرين فى المائة فحسب .

أجابها غاضبًا :

ـ وماذا فى هذا ؟.. هل نسيت أننى لم أكن سوى عامل صغير ، فى مصنع (نجع حمّادى) ، وأنه هو الذى عيننى فى مكتبه ، ومنحنى كل هذا ؟

قالت ساخرة :

ـ لا تقل لى إنك تدين له بالولاء .

أجابها محتدًا :

ـ لست أدين بالولاء لأحد .. إننى فقط أحافظ على الدجاجة ، التى تمنحنا البيض الذهبى .. هل فهمت يا امرأة .

مطّت شفتيها محنقة ، وغمغمت :

ـ هذا شأنك .

كانا قد بلغا حجرة الدكتور (فريد) ، فدفعت الباب فى حذر ، وألقت نظرة على الفراش ، قبل أن تهمس :

ـ هيا .. وبسرعة .

انعقد حاجباه ، واستلّ مديته ، قائلاً فى صرامة شرسة :

ـ بأقصى سرعة .

وتحرَّك على أطراف أصابعه ، حتى بلغ الفراش ، وقال :

ـ الوداع يا (فريد) بك .

وهوى بمديته مرة ، ومرة ، ومرة ...

ثم اعتدل ، وحدَّق فى الجسم الذى اخترقته مديته ، وهو يهتف :

ـ ما هذا ؟

لم يكد ينطقها ، حتى سمع شهقة زوجته من خلفه ، ممتزجة بصوت الرائد (عبد الله) ، وهو يهتف :

ـ ربَّاه !.. هذا ما كنت أخشاه .

ولم يضع (فوزى) لحظة واحدة ..

لقد اندفع بكل قوته نحو النافذة ، واقتحم زجاجها ، وهو يثب منها إلى حديقة المستشفى ، وخلفه الرائد (عبد الله) يصرخ :

ـ قف يا رجل .. قف وإلا أطلقت النار .

ولكن (فوزى) لم يتوقَّف لحظة واحدة ..

لقد ظل يعدو بأقصى سرعة ، حتى تجاوز الحديقة ، وعبر الشارع ، واختفى وسط البنايات المقابلة ، تاركًا زوجته خلفه ، وهى تصرخ :

ـ لست أعرف شيئًا .. أنا لم أفعل أى شىء .. لقد أجبرنى على هذا .

أمسك الرائد (عبد الله) كتفيها ، وهو يهزّها فى قوة ، صائحًا :

ـ أجبرك أيتها الحقيرة ؟.. أجبرك على الإساءة لذلك الزى الذى ترتدينه ؟!..

لقد شاركت فى جريمة قتل .. هل تفهمين ؟.. فى جريمة قتل .

كان الأطباء والممرضات يندفعون من كل صوب ، لمعرفة سر هذه الجلبة ، فهتف بهم (عبد الله) فى انزعاج شديد :

ـ اتصلوا بالدكتور (منعم) والدكتور (عادل) .. حاولوا إسعاف هذا المسكين .. أسرعوا بالله عليكم .

ثم اندفع نحو الفراش ، وأزاح الغطاء ، و ...

واتسعت عيناه فى دهشة بالغة ..

لقد كان الفراش خاليًا ، إلا من وسادة أو وسادتين ، تم وضعهما بطول الفراش ، حتى يوحيا بوجود شخص نائم فوقه ..

وكانت آثار طعنات مدية (فوزى) واضحة عليهما ..

وفى دهشة ، التفت (عبد الله) إلى العاملين والأطباء ، هاتفًا :

ـ أين هو ؟!.. أين الدكتور (فريد) .. أين ذهب ؟!

أطلّت دهشة مماثلة من عيونهم ، وران على المكان صمت تام ، شفّ فى وضوح على أن أحدًا لا يملك جوابًا ..

أى جواب ..

* * *

لم يدر الدكتور (فريد) كيف نجح فى التسلّل إلى هذا المكان !!..

بل لم يدر حتى كيف نهض من فراشه ، وتسلّل خارج المستشفى ، وقطع الطريق حتى مبنى شركة الأمل للمقاولات !!..

كانت هناك قوة عجيبة تدفعه لفعل ما فعل ..

عامل غريب يتحكّم فى أفكاره وتصرّفاته ، ويجبره على القدوم إلى هذا المكان لهدف ما ..

وعامل آخر يصيبه برهبة منه ..

ولكن الأكثر إثارة للدهشة هو أنه لم يأت إلى مبنى الشركة من قبل قط ، وعلى الرغم من هذا فقد كان يعرف مداخلها ، وأبوابها الخلفية ، وموضع النافذة المكسورة فى الطابق الأرضى ، والتى تسلّل منها إلى الداخل ..

كان يعرف كل التفاصيل ، وكأنه قضى نصف حياته فى هذا المكان ..

وهناك سبب ما ، يدفعه إلى حجرة مدير الشركة بالتحديد ..

وداخل الحجرة ، وقف حائرًا ، يدير بصره فى المكان ، ثم اتجه مباشرة إلى دولاب الملفات ، وانحنى يفحص قاعدته فى اهتمام بالغ ، و ...

وفجأة ، أضيئت الحجرة كلها ..

ونهض (فريد) فى توتر ، واستدار يواجه القادم ، الذى لم يكن سوى (شعبان) ، مدير الشركة ، الذى هتف فى عصبية :

ـ من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟

انعقد حاجبا (فريد) ، وهو يحدّق فى وجهه ، قبل أن يشير إليه ، قائلاً فى حدة :

ـ أنت .. أنت (شعبان مختار) .. أنت مدير الشركة .

نطقها على نحو جعل (شعبان) يتراجع فى توتر ، ويقول :

ـ من .. من أنت ؟!

اندفع (فريد) يقول فى غضب :

ـ أيها المجرم .. المدارس ستنهار على رءوس الصغار .. أيها القاتل .

امتقع وجه (شعبان) ، وهتف :

ـ من أنت بالضبط ؟.. ماذا تريد منى ؟

صاح به (فريد) :

ـ ستدفع ثمن جرائمك .. أنت و (فوزى) ستدفعان الثمن .

لم يكد ينطقها ، حتى اندفع (فوزى) إلى الحجرة ، وهو يهتف :

ـ (شعبان) بك .. كنت أعلم أننى سأجدك هنا .. لن يمكنك أن تتخيّل ما حدث ..

ثم انتبه فجأة إلى (فريد) ، فاستدار إليه بنظرة وحشية ، قائلاً :

ـ إذن فأنت هنا .. كان ينبغى أن أتوقّع هذا .

سأله (شعبان) فى ارتياع :

ـ هل تعرف هذا الرجل ؟

أجابه (فوزى) فى شراسة :

ـ نعم .. إنه الرجل الذى ذهبت لزيارته فى المستشفى .. الدكتور (فريد خالد) .

لم يكد (شعبان) يسمع الاسم ، حتى تراجع كالمصعوق ، وهتف :

ـ هو ؟!.. إذن فما قالوه صحيح .. إنه يعرف كل شىء عن عملية المدارس .. كل شىء .. روح (كريم) حلّت بجسده فعلاً .

قال (فوزى) فى حدة :

ـ لست أصدّق هذا الهراء ، ولكن .

وفرد مديته بحركة عنيفة ، مستطردًا :

ـ ما يدخل يمكن أن يخرج .

تراجع (فريد) فى حذر ، وهو يقول :

ـ إذن فستحاول قتلى ثانية .

أجابه (فوزى) فى شراسة :

ـ ولن أفشل هذه المرة .

ثم انقضّ عليه فى عنف ، وهوى على صدره بالمدية ، ولكن (فريد) تفاداها بوثبة جانبية ، وعبر الباب المفتوح بقفزة أخرى ، وانطلق يعدو خارجه ، و (شعبان) يصرخ فى انهيار :

ـ لا تجعله يهرب هذه المرة .. الحق به .. الحق به .

انطلق (فوزى) خلف (فريد) ، فى حين انهار (شعبان) على مقعده ، وهو يردّد :

ـ لو هرب سنخسر كل شىء .. كل شىء .

ودفن وجهه فى كفيه ، وراح يبكى فى انهيار ، فى نفس الوقت الذى قفز فيه (فريد) داخل المصعد ، وضغط زر الهبوط فى

عصبية ، وعيناه تراقبان (فوزى) الذى يعدو متجهًا إليه ، ومديته تلمع فى يده ..

وكان سباقًا مخيفًا ، خُيّل إليه أنه عاش أحداثه من قبل ، بين قدمى (فوزى) وباب المصعد ..

ولكن (فوزى) انتصر هذه المرة ..

لقد بلغ المصعد ، قبل أن يُغلق بابه تمامًا ، ودفع يده بالمدية عبر فرجتيه ، وهو يقول فى شراسة جنونية :

ـ هل تصوّرت أنك ستنجح فى الفرار ؟

توقّفت رحلة الباب تلقائيًا ، عندما اعترضته يد (فوزى) ، وعاد ينفتح فى بطء ، فشعر (فريد) بذعر شديد ، جعله يضرب (فوزى) بقدمه ، صارخًا :

ـ ابتعد .. ابتعد ..

كانت الضربة من القوة ، بحيث أنها ألقت (فوزى) إلى الخلف فى عنف ، فتدحرج أرضًا ، وسقطت مديته ، فى حين عاود باب المصعد رحلته ، والتحمت ضلفتاه ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها (فوزى) واقفًا ، وصرخ :

ـ لن تهرب منى .

لهث (فريد) فى شدة ، والمصعد يهبط به إلى أسفل ، وتساءل فى سخط عما دفعه إلى القدوم إلى هذا المكان ، ولكن فجأة ، سيطرت على رأسه فكرة عجيبة ..

كان هناك شىء ما فى أعماقه ، يدفعه دفعًا إلى جذب ذلك الجزء من جدار المصعد ..

ولم يقاوم (فريد) ..

لقد انتزع ذلك الجزء بالفعل ، وأدهشه أن يعثر خلفه على بعض الوثائق ، ولكنه لم يترك لنفسه مهلة للتفكير ، وإنما انتزعها من مكانها ، ودسّها فى جيبه فى سرعة ، وهو يراقب باب المصعد ، الذى واصل هبوطه ، حتى بلغ الطابق الأرضى ، وانفتح بابه ، فاندفع هو خارجه ، وهو يهتف :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ولكنه لم يكد ينطقها ، حتى انقضّ عليه (فوزى) من الخلف ، وغرس نصل مديته فى ظهره ، صارخًا :

ـ قلت لك لن تهرب منى .

شعر (فريد) بالألم الشديد فى ظهره ، وهو يسقط على وجهه ، ويتدحرج نصف دورة ، ويواجه (فوزى) ، الذى جثم على صدره ، وصاح فى وحشية مخيفة :

ـ لا أحد يهرب منى بهذه البساطة .

كان (فريد) يرغب فى مقاومته ، ولكن الألم الشديد فى ظهره كان يمنعه من هذا ، ثم إن ساقى الرجل كانتا تكبلان ذراعيه فى مهارة ، ومديته ترتفع إلى أعلى ، وتهمّ بالغوص فى قلبه ، و ...

وفجأة ، دوت رصاصة ..

رصاصة انتزعت المدية من يد (فوزى) ، مع صوت صارم يصرخ :

ـ إياك أن تكرّر المحاولة ..

وفى لحظات ، كان رجال الشرطة يملئون المكان ، ويمسكون (فوزى) ، وعلى رأسهم الرائد (عبد الله) ، وفوزى يصرخ :

ـ ماذا تفعلون ؟.. ألقوا القبض عليه هو .. إنه لص ، تسلّل إلى الشركة فى وقت متأخر ، ولم يكن يعلم أننى و (شعبان) بك هنا ، نراجع بعض المستندات ، منذ انصراف الموظفين .. هل من حق أى لص أن يقتحم المكان ؟

تجاهله (عبد الله) تمامًا ، وهو ينحنى ليفحص (فريد) ، ويسأله فى توتر :

ـ أأنت بخير ؟!

أجابه (فريد) :

ـ لقد طعننى فى ظهرى ، وأحتاج إلى إسعاف عاجل .

صاح (عبد الله) فى رجاله :

ـ اتصلوا بالإسعاف .. أسرعوا .

وهتف (فوزى) :

ـ دفاع شرعى عن النفس .. حالة دفاع شرعى عن النفس .

هبط (شعبان) فى هذه اللحظة ، ورأى المشهد ، فاضطرب فى شدة ، ولكن (فوزى) صاح به :

ـ أليس كذلك يا (شعبان) بك ؟!.. إنه لص .. أليس كذلك ؟

ارتبك (شعبان) لحظات ، قبل أن يتمتم :

ـ بلى .. بلى .. إنه كذلك .

هتف (فوزى) :

ـ أرأيت يا سيادة الرائد .. أرأيت .. (شعبان) بك سيشهد بأننى قضيت الليل كله معه فى المكتب ، وأن هذا مجرّد لص .. أرأيت .

قال (عبد الله) فى غضب :

ـ لا فائدة يا رجل .. زوجتك اعترفت بأنك ذهبت إلى المستشفى لقتل الدكتور (فريد) .. لا فائدة من الإنكار .

هتف فى حدة :

ـ كاذبة .. كاذبة يا سيادة الرائد .. لقد فعلت هذا بسبب الخلافات بيننا .. إنها كاذبة .

سعل (فريد) ، والتقط الأوراق من جيبه ، وناولها للرائد (عبد الله) ، قائلاً :

ـ دعه يتنصّل من هذا ، وستدينه هذه الوثائق .

امتقع وجه (شعبان) ، وهو يحدّق فى الوثائق ، فى حين بدت الصدمة واضحة على وجه (فوزى) ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. سأعترف بكل شىء يا سيادة الرائد .. المدير أجبرنى على فعل هذا .. إنه ..

قاطعه (شعبان) صارخًا :

ـ أيها الحقير .. أيها الخائن .

ولكن لم يعد للقول أهمية .. لقد انتهت القضية هذه المرة .. انتهت تمامًا ..

* * *

« كنت أعلم أن هذا سيحدث .. » ..

نطقها الدكتور (منعم) بابتسامة كبيرة ، شملت وجهه كله ، قبل أن يلوّح بسبّابته ، مضيفًا :

ـ منذ اللحظة الأولى أدركت أن اللّه (سبحانه وتعالى) لم يقدّر هذا الأمر عبثًا ، وإنما أتت المصادفة لحكمة من حكمه (عزّ وجلّ) .. إنه نوع من تحقيق العدالة ، بوسائل يعجز البشر عن فهمها وتفسيرها ، فعندما طارد (فوزى) (كريم) ، وطعنه مرتين ، إلى أن قتلته الصاعقة ، كان يتصوّر أنه بهذا قد دفن السر إلى الأبد ، ولم يدر بخلده قط أن الصاعقة نفسها ستوقع به وبمديره ، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة .

ابتسم الرائد (عبد اللّه) ، وهو يقول :

ـ الأكثر غرابة هو أننى صدّقت القصة منذ البداية ، واقتنعت تمامًا بأن ما حدث يحمل حكمة ما .. من كان سيعثر على تلك الوثائق ، لو لم يحدث هذا ؟! .. إنها حكمة ربّانية .

تنهّد (فريد) ، وقال :

ـ لم يكن عندى أدنى شك فى هذا .

أومأ الدكتور (عادل) برأسه ، وسأله :

ـ الآن ، وبعد أن نجوت من الموت مرتين بأعجوبة ، أمازلت تحمل ذكريات (كريم عبد الرحمن) ؟

هزّ (فريد) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .. لقد انمحى الكثير من رأسى ، بعد خروجى من حجرة العمليات الجراحية .. ربما كان هذا من تأثير البنج المستخدم ، أو ...

قاطعه الدكتور (منعم) :

ـ أو أن الفكرة استنفدت غرضها .

صمت (فريد) لحظة ، ثم قال :

ـ بالتأكيد .

ران الصمت على الحجرة لحظات ، قبل أن يقطعه الرائد (عبد اللّه) ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ هل تعرف أن التقرير الرسمى لم يشر إلى حقيقة الأمر قط .

ابتسم (فريد) بدوره ، مغمغمًا :

ـ أعتقد أن هذا أفضل .. من السخف أن يتهمنا أحد بالجنون ، بعد كل هذا الجهد .

قهقه (عبد الله) ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. أنت على حق .

ثم سأله مبتسمًا :

ـ ولكن العدالة الإلهية تحقّقت ، وهذا هو المهم .. قل لى : هل تحتاج إلى شىء ما ؟

أومأ (فريد) برأسه ، وتنهّد ، قائلاً :

ـ إلى النوم .

ابتسم الجميع فى تعاطف ، وأشار الدكتور (منعم) بيده ، قائلاً :

ـ فليكن .. انعم بالنوم يا رجل .. أنت تستحقه بالفعل .

وعندما انصرف الجميع ، وأطفئوا أنوار الحجرة ، استرخى الدكتور (فريد) فى فراشه ، وغمغم :

ـ لماذا أنا دائمًا ؟

ولكنه فى هذه المرة يعرف الجواب ..

إنها الحكمة الإلهية ، التى تضع كل شخص فى الموقع الذى يستحقه بالتحديد ..

ولأنه أدرك الجواب ، وعلى الرغم من جرحه وآلامه ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة راضية كبيرة ، وهو يغلق عينيه ، ويستسلم لنوم عميق ، عسى أن يمحو به آثار الإصابة ..

وآثار الصدمة .

* * *

[تمت بحمد الله]

من وراء النجوم (دراسة)

هل هناك مخلوقات عاقلة ، على كواكب أخرى ؟!..

من المؤكّد أنها ليست أوّل مرة ، تلقى فيها على نفسك هذا السؤال ، بعد كل رواية تقرؤها من روايات الخيال العلمى ، وكل خبر تطالعه حول الأطباق الطائرة ، وظواهرها العجيبة ..

ومن المؤكّد أيضًا أنك لم تجد قط جوابًا علميًا شافيًا لسؤالك ..

إنك تقرأ كثيرًا عن مخلوقات العوالم الأخرى ، وترسم فى ذهنك عشرات الصور والتخيلات لهيئتهم ، وللاختلافات بينهم وبين البشر ، وتشاهد بعض الأفلام الخيالية العلمية ، التى ترسم لهم بعض الصور المخيفة ، أو التركيبات العجيبة ، مثل (إى.تى) ، أو تضع على رءوسهم هوائيات مضحكة ، أو تمنحهم بشرة خضراء وزرقاء وبنفسيجية ..

ولكنك أبدًا لا تقتنع ..

الصورة لا تريح خيالك ، أو تملأ فراغ ذهنك قط ..

ثم إن الفكرة نفسها ما زالت تحمل فى أعماقها بذرة شك ..

بل هى حديقة كاملة من الشك ، تنبت فيها زهرة واحدة من اليقين ..

واليقين هنا لا يأتى من رؤيتك لمخلوقات من كواكب أخرى ..
ولا من القصص التى تقرؤها عنهم ..
إنه يأتى من ثقتك بالله (سبحانه وتعالى) ، الذى خلق المئات من أشكال الحياة ، على كوكب الأرض ، وعلى اليابسة ، وفى أعماق البحار ، وحتى فى قلب البراكين ، وأنه (عزّ وجلّ) قادر على خلق الملايين والملايين من أشكال الحياة الأخرى ، فى غياهب الفضاء ، وفيما وراء النجوم ..
ولكنك ـ على الرغم من كل هذا ـ لا تملك دليلًا علميًا واحدًا ، على وجود مخلوقات فى كواكب أخرى ..
بل إن العلم كله ، بما توصّل إليه من تكنولوجيا الرصد ومراقبة النجوم ، وبما يحمله من نظريات ، حول منشأ الأرض والكواكب ، ومولد المجموعات الشمسية والنجوم ، لا يملك بعد دليلًا ماديًا واحدًا ، على وجود أية كواكب ، فى أية منظومة شمسية أخرى ..
هذا ما تؤكدّه كل الكتب والمراجع العلمية ، ويجزم به كل المهتمين والمشتغلين بالفلك ، وكل علماء الفضاء والنجوم ..
فيما عدا البروفيسير (جان بيير بوتى) ...
وقبل أن نتطرّق إلى ما قاله ذلك العالم الجليل ، دعونا نتعرّفه أوّلًا ..
والبروفيسير (جان بيير) هذا يعمل أستاذًا ومدير أبحاث ، فى المركز القومى للأبحاث العلمية فى (فرنسا) ، وهو فيزيائى شهير ، واخصائى فى علم الكون والفلك وميكانيكا السوائل ، ورجل عُرف بالجدية والاتزان ، وبالاهتمام الشديد بكل الظواهر العلمية

والميتافيزيقية ، وبحسن التحليل والاستنباط ، استنادًا إلى مبادئ العلم والمنطق وقوانين الفيزياء المثبتة علميًا ..
باختصار ، إنه رجل فوق مستوى الشبهات ، من الناحية العلمية ..
وهذا الرجل ، هو أكثر من يؤمن ـ على وجه الأرض ـ بوجود مخلوقات فى الكواكب الأخرى ..
ليس هذا فحسب ، ولكنه يؤمن أيضًا بأن هذه المخلوقات تعيش هنا بيننا ..
على كوكبنا (الأرض) ..
وقبل أن تتسرّع بالرفض ، أو باستنكار القول ، أو نفى الفكرة ، تعال نستعرض معًا ما كتبه البروفيسير (جان بيير) ، حول هذا الأمر ..
لقد وجّه (جان بيير) صدمة للعالم كله ، وللأوساط العلمية بالذات ، عندما أعلن أنه على اتصال بمخلوقات من كوكب آخر ، منذ ما يقرب من نصف القرن ، وأنهم يرسلون إليه رسائلهم بانتظام ، وهذه الرسائل ليست مجرّد حديث أو شرح لوجودهم ، وإنما تحوى ، فى بعض الأحيان ، معادلات فيزيائية مدهشة ، وحلول علمية مذهلة ، لمشكلات حار فيها أعظم علماء العالم طويلًا ..
ليس هذا فحسب ، وإنما يؤكّد البروفيسير (جان بيير) أيضًا أنه ليس الوحيد فى هذا العالم ، الذى يتلقّى رسائل مخلوقات الكواكب الأخرى هؤلاء ، ولكنه واحد من مجموعة كبيرة ، من العلماء والمفكرين ، الذين تصلهم هذه الرسائل ، والذين ينبهرون ، فى المعتاد ، بكل ما جاء فيها ، من معلومات وأخبار وحلول ..

وقبل أن يفيق العالم من صدمته ، راح (جان بيير) يقص ما يعرفه عن زوار الفضاء هؤلاء ، من واقع رسائلهم ، التى تعامل معها لربع قرن من الزمان ..

فهؤلاء الزوار ينتمون إلى كوكب يحمل اسم (يومو) (UMMO) ، يبعد عنا بخمس سنوات ضوئية تقريبًا(*) ، وجاذبيته تزيد قليلًا عن جاذبية كوكب (الأرض) ، حتى أن سكانه يشعرون على سطح (الأرض) بأنهم أخف وزنًا بمقدار ٢٠٪ وكتلة الكوكب تزيد مرة ونصف على كتلة (الأرض) ، وطول يومه ٣٢ ساعة ، بدلًا من ٢٤ ساعة ، وتمر به فصول أربعة ، تمامًا مثل الفصول المناخية عندنا ، ولكن ليس له أية أقمار ، لذا فليله حالك الظلمة ، ثم إنه لم يمر بمرحلة انشقاق القارات ، ولهذا فليس فيه سوى قارة واحدة ، وجنس واحد من الشُقر الطوال القامة ، يتحدثون لغة واحدة ، مما خفض احتمالات نشوب الحروب إلى الحد الأدنى ، وساعد على سرعة التقدم العلمى ، والتطوّر التكنولوجى ..

وهذا لا يعنى أن كوكب (يومو) هو جنة الله (سبحانه وتعالى) فى الكون ، أو أنه كتلة من الخير الصافى ، فتاريخه يشير إلى أنه ذات يوم ، كانت تحكمه امرأة مستبدة ، وضعت نفسها فى مصاف الآلهة ، وحكمت القارة الوحيدة هناك بالحديد والنار ، بوساطة جهاز شرطة قوى ، ولكن إحدى خادماتها نسفتها ذات يوم ، فاشتعلت ثورة عنيفة ، كان من نتيجتها أن استولى الشعب على الحكم ، وتم انتخاب مجلس خاص لإدارة الكوكب ، طبقًا لنظام محكم ، يضمن عدم تكرار الموقف ثانية ..

(*) السنة الضوئية : هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة ، وهى تساوى حوالى ستة ملايين من الأميال .

وأصبح على سكان (يومو) أن يطوّروا أنفسهم ، ويسعوا للتفوّق والتقدّم ..

وذات يوم ، التقطت أجهزتهم رسالة ، أو إشارة منظّمة ، آتية من أحد الكواكب ، فى الكون الشاسع ..

والعجيب أن هذا الكوكب كان كوكبنا (الأرض) !!..

ولأن كوكبنا كان يبدو لهم أشبه بالمربع (طبقًا لرسائلهم) ، مع لون أزرق باهت ، فقد أطلقوا عليه فى لغتهم اسم (أوياجا) (OYA GAA) ، حيث أن كلمة (OYA) تعنى (المربّع) ، و (GAA) تعنى (البارد) ... أى أن كوكبنا كان معروفًا عندهم باسم (المربّع البارد) ..

وضمن برنامج رحلاتهم الفضائية ، انطلق روّاد الفضاء من (يومو) ؛ لزيارة كوكب (الأرض) ، الذى هبطوا فوقه فى الثامن والعشرين من مارس ، عام ١٩٥٠م..

ولقد حدّد زوّار (يومو) فى إحدى رسائلهم موقع هبوطهم بالتحديد ، ووصفوا كل ما رأوه من هذه النقطة ، وقالوا إنهم أخفوا بعض معداتهم فى مغارة جبلية ، نجحوا فى إخفائها بمهارة ، وتركوا ستة منهم لدراسة اللغة والعادات المحلية ، ثم رحلوا لإبلاغ كوكبهم بنتائج زيارتهم الأولى ..

ولم يترك المهتمون بالأمر هذه المعلومة تمرّ ببساطة ، بل كوّنوا فرقة بحث ، وانطلقوا إلى النقطة التى حدّدها زوّار (يومو) ، وكانت فى انتظارهم مفاجأة مذهلة ..

لقد حاولوا رؤية كل ما جاء بالرسالة ، من الإحداثيات التى حدّدتها الرسالة ، ولكن ذلك بدا مستحيلًا ، إلا إذا ..

إلا إذا ارتفعت مائة وعشرين مترًا عن سطح الأرض ..

من ذلك الارتفاع وحده ، يمكنك رؤية كل الإحداثيات فى وضوح ..

ليس هذا فحسب ، وإنما عثر الباحثون هناك على أحجار حمراء اللون ، لا تشبه أية عينات جيولوجية(*) معروفة ، على وجه الأرض ..

ورسائل (يومو) نفسها مطبوعة على ورق خاص ، من العسير صنع مثله ، إلا باستخدام تكنولوجيا متطوّرة للغاية ، والختم الذى تحمله تصدر عنه إشعاعات ذرية محدودة ، كما لو أنه مطبوع بمادة مشعة ، من أحد النظائر ، التى لم يتم الحصول عليها بعد ، فى معامل الكيمياء العادية ، حتى أن (جان بيير) يقول عن هذا :

ـ كل الدلائل تشير إلى أنه إما أن أصحاب الرسائل هم مجموعة من أكبر علماء الفيزياء ، وأكثرهم عبقرية ، تعاونهم مختبرات تكنولوجية رائعة ، ويسعون لصنع أكبر دعابة فى التاريخ ، وإما أنهم بالفعل من سكان كوكب (يومو) هذا .

والواقع أن (جان بيير) لم يطلق هذا القول من فراغ ، فبحكم كونه عالمًا فيزيائيًا ، كان من الطبيعى أن ينبهر بما جاء فى رسائل زوّار (يومو) ، فيما يختص بالحلول الفيزيائية للمشاكل العويصة ..

(*) الجيولوجيا : علم الأرض ، ويشمل دراسة أصل الأرض ، وتاريخ تطوّرها ، وبنياتها ، والأحداث التى مرّت بها ، وطبيعتها الكيميائية والفيزيقية ، ودراسة سكانها ، وتطوّر الحياة فيها ، منذ أوّل تسجيل لنشوئها ، وحتى العصر الحديث .

وخصوصًا حل مشكلة الرنين ..

وهذه المشكلة أقلقت علماء الفيزياء طويلًا ، وهم يحاولون تفسير السرعات الخارقة للأطباق الطائرة ، التى سجّلها الطيارون ، الذين حاولوا مطاردتها يومًا ، أو وهم يبحثون عن وسيلة لإطلاق مركبات الفضاء الأرضية بسرعات كبيرة ، دون أن تؤدى هذه السرعات إلى الوصول لنقطة منتهى الرنين ، التى يمكن أن ينهار عندها جسم المركبة الفضائية تمامًا ..

وبينما انهمك أكبر علماء العالم فى دراسة هذه المشكلة ، وعجزوا عن الوصول إلى حل علمى منطقى لها ، وصلتهم فجأة رسالة من زوّار (يومو) ، تمنحهم هذا الحل على طبق من فضة ..

والحل هنا يعتمد على وجود شبكة من الأنابيب ، حول جسم المركبة الفضائية ، تحوى مادة يمكن تحويلها بسرعة ، من الحالة السائلة ، إلى الحالة شبه الصلبة (الجيلاتينية) ، وهذه الشبكة تتصل بكمبيوتر خاص ، يقيس درجة الرنين ، التى وصلت إليها جدران المركبة الفضائية ، وعندما تصل إلى درجة قريبة من المستوى الحرج ، يعمل الكمبيوتر على تحويل تلك المادة ، من الحالة السائلة إلى الحالة الجيلاتينية ، أو العكس بالعكس ..

وهذا يغيّر مستوى الرنين ، وينهى المشكلة على الفور ..

وكانت الرسالة مذهلة ، بالنسبة للعلماء الكبار ، لما تحمله من حل مباشر وصحيح وبسيط ، لمشكلة أرهقتهم طويلًا ..

و (جان بيير) يعتبر أن مثل هذه الرسائل هى أكبر دليل على صحة وجود زوّار (يومو) ورسائلهم ، وإلا فكيف تتوصّل مجموعة عابثة ، إلى ما عجز عنه أكبر علماء العالم ؟!

بل كيـف عرفت تلك المجموعـة أن هذه المشكلـة تؤرق العلماء ؟!..

وحتى لا تثار الشكوك حول رواية (جان بيير) هذه، قام العالم الفرنسى الجاد بإضافة ملحق علمى خاص لكتابه، يضمّ صورًا لهذه الوثائق، مع تحليل علمى دقيق مفصّل مطوّل، يكفى لإقناع العلميين، وإزالة كل شكوكهم ..

وفى هذا الملحق، أجاب (جان بيير) على أكبر نقطة اعتراض وتشكيك، فى قصة زوّار (يومو) كلها ..

نقطة الزمن ..

فمن الطبيعى أن تعلو الأصوات معترضة، على سرعة وصول سكان (يومو) إلى كوكبنا، وعلى رحلتهم القصيرة نسبيًا، والتى تستغرق عامين، قياسًا بالمسافة التى تفصلنا عنهم، والتى تبلغ خمس سنوات ضوئية كاملة ..

ولكن رسائل (يومو) نفسها تحمل الجواب ..

لقد تحدّثوا فى رسائلهم عن نظرية، أطلقوا عليها اسم (توءمية الكون)، هذه النظرية تشبه، إلى حد ما، نظرية المادة المضادة، التى وضعها البريطانى (بول دريك)، عام ١٩٢٨م، بعد أن صهر عدة معادلات سابقة لنظريتى (الكم) للعالـم (ماكس بلانك)، و (النسبية) لـ (ألبرت أينشتين)، وتوصّل إلى وجود مادة معكوسة، تكون نواة الذرة فيها سالبة، وإليكتروناتها موجبة ..

ونظرية (يومو) تقول : إنه لا يوجد كون واحد، وإنما هناك كونان توءمان، تربطهما ببعضهما تلك المناطق، التى نطلق عليها اسم الثقوب السوداء، وبالمرور عبر هذه الثقوب السوداء، من خلال شبكة اتصالات خاصة، تمت دراستها منذ قرون عديدة، تستطيع سفن (يومو) الفضائية اختصار الزمان والمكان، وعبور ملايين الوحدات الفضائية فى أيام معدودات ..

ومن الطبيعى أن تواجه هذه النظرية هجومًا عنيفًا ..

ولكن هذا لا يعنى أنها نظرية خاطئة، بل يعنى فقط أنها نظرية ساحقة، تسحق صحتها كل النظريات التى جاءت قبلها ..

والناس أعداء ما يجهلون ..

حتى ولو كانوا من العلماء ...

وبعض هؤلاء العلماء يتساءلون فى سخرية : ولماذا لم يعلن سكان (يومو) المزعومون هؤلاء عن وجودهم على نحو صريح، بدلًا من هذه الرسائل العجيبة الملتوية ؟..

وحتى هذا السؤال، تجد إجابته فى رسائل (يومو) ..

إنهم يقولون : إن الوقت لم يحن بعد للتصريح بوجودهم، ولكنهم مازالوا يحتفظون بأوّل مخبأ سرى صنعوه، فى قلب الغابات الفرنسية، ليكون بكل ما يحويه من معدات تكنولوجية، وإمكانات مبهرة، شاهدًا على صحة قصتهم، عندما تحين اللحظة المناسبة، ويبدءون فى الاتصال برؤساء وملوك الدول، للإعلان عن وجودهم..

وزوّار (يومو) لهم شعار عجيب، يحملونه على أزيائهم الفضائية، وهو عبارة عن رسم لثعبان مجنّح، أثار انتباه (جان بيير) وحيرته طويلًا، ولكنهم لم يفصحوا عن مغزاه قط ..

وسكان (يومو) هؤلاء يمكنهم التجوّل بحرية وسط البشر ، دون أن يثير وجودهم إلا أدنى انتباه ، فتكوينهم الخارجى بشرى للغاية ، باستثناء أنهم أطول قامة فى المتوسّط ، وأنهم شاحبو الوجه كثيرًا ، ولكن هذا لا يمنعهم من الذوبان وسط طوفان البشر ، وخصوصًا فى المدن المزدحمة ، مثل (نيويورك) و (روما) .. وحتى (القاهرة) ..

ولكن أغرب ما أشار إليه زوّار (يومو) فى رسائلهم ، هو أنهم أبناء عمومتنا ..

أو بمعنى أدق ، أن أبحاثهم أثبتت أننا وهم من أصل واحد ..

ولكنهم أبدًا لم يفسّروا ما يعنيه هذا ..

هل كان أجدادهم أرضيين ، من حضارة سابقة ، ثم هاجروا إلى ذلك الكوكب البعيد ، أم أننا وهم أتينا من كوكب آخر ، ولكن بعضنا اتجه نحو (الأرض) ، والبعض الآخر نحو كوكب (يومو) ؟!

لست أعتقد أننا سنجد الجواب فى سهولة ..

والأمر كله عسير التصديق ، ويثير ألف علامة شك ويفجّر فى النفس كل أسباب الحذر ..

وأنا واثق بأن العديدين منكم استنكروه ، وسخروا منه ..

بل ورفضه البعض تمامًا ..

وربما اتهمنى بالخبل والكذب ، وبأننى أسعى إلى غش القارئ ، واستثارته بدجل ساذج ، حتى أضمن نسبة أكبر من المبيعات ..

ولكن هذا لا يقلقنى ..

(جان بيير بوتى) واجه الموقف نفسه ، عندما نشر كتابه هذا ، عن سكان الكوكب (يومو) ..

ولكن العالم الفرنسى تحدّى الحكومة الفرنسية ، فى نهاية كتابه ، بكل مؤسساتها العلمية ، وهيئاتها الرسمية ، أن تنكر ما جاء فى كتابه ..

تحدّاها أن تنكر أن مسئوليها تلقّوا أيضًا عشرات الرسائل من زوّار (يومو) ، وأن الهيئات العلمية تدرس الأمر بمنتهى الجدية ، بل وتحاول إجراء اتصال رسمى مباشر مع هؤلاء الزوّار ..

وجدير بالذكر أن أحدًا فى الحكومة الفرنسية لم يستنكر هذا التحدّى أو يرفضه ..

وأحدًا أيضًا لم يقبله ..

فهل يثير هذا فى نفسك أية تساؤلات ؟!..

وهل تعلم أن (جان بيير بوتى) ليس أوّل من يشير إلى وجود سكّان من الفضاء الخارجى ، على كوكب الأرض ؟!..

لقد سبقه إلى هذا الكاتب الشهير (تشارلز بيرلتز) ، عندما قام بتحقيق واسع النطاق ، حول ما أطلق عليه اسم (حادث روزويل) ..

و (روزويل) هذه قرية صغيرة ، فى ولاية (نيومكسيكو) الأمريكية ، استيقظ سكانها ذات ليلة ، من ليالى يولو ، عام ١٩٤٧م ، على دوى هائل ، ونيران ترتفع فى الأفق ، وانطلق مأمور القرية فى الشوارع ، يصرخ :

ـ الغزاة هبطوا من الفضاء .. الغزاة هبطوا من الفضاء ..

وقبل أن يندفع أهل القرية إلى منطقة الحقول الشمالية ، حيث سقط جسم غريب ، بدت قبته الخضراء الضخمة واضحة ، على الرغم من تحطّم قاعدتها ، كان الجيش يحيط بالمكان كله ، ويصدر أمرًا بمنع التجوال ، ثم تنفيذه بمنتهى السرعة والصرامة ، على الرغم من اعتراض الأهالى واستنكارهم ..

وخلال ساعة واحدة ، رأى السكان من نوافذهم عدة قوافل ، تملأ المكان ، الذى اكتظ بمئات الغرباء ، وأحيط بنطاق أمنى عنيف ، جعل قائد فرقة الجيش يهدّد بإطلاق النار دون إنذار ، على كل من يحاول مغادرة منزله ، قبل انتهاء فترة حظر التجوال ..

وكان من الواضح أن الأمر بالغ الأهمية والخطورة ..

ولكن مع طلوع النهار ، وبعد حركة لا تنقطع من عشرات فى سيارات الجيش والنقل والأوناش الضخمة ، انتهت فترة حظر التجُوال العامة ، وانصرف رتل من السيارات ، وهو يحمل أشياء ضخمة ، أخفيت فى عناية بالغة ، تحت خيام كبيرة محكمة الإغلاق ، واقتصر الحظر على منطقة السقوط وحدها ، التى امتلأت بالباحثين والمنقبين لفترة طويلة ..

وعندما تتبّع (تشارلز بيرلتز) هذا الأمر ، توصّل إلى أن ذلك الشىء ، الذى سقط على (روزويل) ، فى تلك الليلة من يوليو ١٩٤٧م ، كان أحد الأطباق الطائرة ، التى حوت جثث بعض المخلوقات ، من الفضاء الخارجى ، وأن أحد هذه المخلوقات لم يلق مصرعه مع السقوط ، فاحتفظت به المخابرات المركزية ، فى معامل أبحاث الفضاء ؛ لتقوم بدراسته ، ولكنه مات بعد أسبوع واحد ، متأثرًا بإصابته ، التى لم ينجح الطب الأرضى ـ آنذاك ـ فى علاجها ..

وعندما نشر (بيرليتز) كتابه هذا ، أصيب المجتمع الأمريكى بصدمة بالغة ، وثار بعض صحفييه ومفكريه ، وطالبوا الحكومة بكشف كل الحقائق المتعلقة بهذا الحادث ، إلا أن الحكومة الأمريكية التزمت الصمت التام ، دون أن تكذّب الموقف أو تنفيه ، أو تعترف به ..

واستفزّ هذا الموقف أحد أعضاء جمعيات المراقبة الفضائية ، فقرّر أن يقاضى وكالة المخابرات الأمريكية ، لإخفائها الحقائق عن الشعب ، وعندما انعقدت المحاكمة ، فى يناير ١٩٧٢م ، طلبت المخابرات الأمريكية أن تكون الجلسة سرية ؛ لأمور تتعلّق بالأمن العام ، وبعد سبع جلسات مغلقة ، أصدرت المحكمة حكمها بإدانة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ولكنها أسفت لعدم استطاعتها إصدار حكم بكشف كل تفاصيل الحادث ؛ لأن هذا يتعارض مع الأمن الأمريكى كله ..

واعتبر العامة هذا الحكم اعترافًا من الحكومة وجهاز المخابرات ، بكل ما جاء فى كتاب (تشالز بيرليتز) ..

ولكن هذا لم يحسم الأمر ..

وفى صيف ١٩٩٤م ، نشرت مجلة (أومنى) العلمية ، وهى إحدى المجلات القليلة الجادة فى هذا المجال ، مقالًا مختصرًا ، يذكّر الناس بحادثة (روزويل) ، وطلبت منهم أن يتقدّموا بطلب للحكومة ، لنشر تفاصيل الحادثة ، بعد مرور أكثر من خمسة وأربعين عامًا على وقوعها ..

وحتى ديسمبر ١٩٩٤م ، وصل عدد المطالبين إلى أكثر من أربعة عشر مليونًا من الأمريكيين ، ولكن الحكومة ما زالت ترى أن الأمر يحتاج إلى أن يظلّ حبيس الأدراج ، وهو يحمل تلك العبارة المستفزة ..

عبارة (سرى للغاية) ..

ويبدو أن هذه العبارة ومثيلاتها ، ستظلّ دائمًا حاجزًا تتحطّم عليه كتابات (جان بيير) ، و (بيرليتز) ، وغيرهم ، حتى تحين اللحظة المناسبة ، التى تسقط فيها كل الحواجز ، ويعلن أحد سكان الكواكب الأخرى عن وجوده ..

وصيغة الجمع هنا مقصودة ؟ فمن الواضح أن سكان (يومو) ، الذين يتحدّث عنهم (جان بيير) ، يختلفون عن هؤلاء الذين سقط بهم الطبق الطائر فى (روزويل) ؛ فالآخرون وصفهم (بيرليتز) بأنهم قصار القامة ، وكبار الرءوس ، ثم أن الحادثة وقعت عام ١٩٤٧م ، قبل وصول أوّل رحلة من رحلات زوّار (يومو) إلى الأرض ..

إذن فلم تعد أرضنا كوكبًا يقتصر علينا ..

لقد صار محطة فضائية ، يتجه إليها سكان كواكب مختلفة ؛ لأنها تجذب انتباههم ..

أو لأنها تناسب معيشتهم ..

وأيًا كان الجواب ، فمن المؤكّد أننا هدف لدراسات تبدأ و تأتى دائمًا من هناك ..

من وراء النجوم .

د . نبيل فاروق

★ ★ ★

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها من عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

١ ـ البداية ..

الخامس من أكتوبر .. عام ١٩٧٣ م ..
التاسع من رمضان .. عام ١٣٩٣ هـ ..

كل شيء هادئ ، فى قلب (سيناء) ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

الرمال والتباب بدت ساكنة ، مع النسيم الهادئ العليل ، وانتظمت حباتها ، إلا من آثار الزواحف والحشرات الصغيرة ، التى نشطت مع المناخ المعتدل ، وراحت تزحف فى كل الاتجاهات ، بحثًا عن غذائها ، بعضها من البعض ، ومن بقايا نباتات عشوائية صغيرة ، تناثرت على مساحات واسعة ، فى قلب الصحراء ، حتى لا تكاد تلحظ وجودها ..

حتى الجنود الإسرائيليون ، فى خط (بارليف)(*) وحوله ، هبط عليهم شيء من الكسل والخمول ، فجلسوا يتسامرون ، ويطلقون سحب الدخان من سجائرهم المشتعلة ، دون أن يبالوا بالمصريين ، الذين يقبعون على الشاطئ الغربى للقناة ، وكأنما وقر فى قلوبهم أن وجودهم على شاطئها الشرقى صار أمرًا نهائيًا

(*) خط بارليف : خط دفاعى ، أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ، يتكوّن من عدد من التحصينات ، التى قيل عنها إنها قادرة على الصمود أمام قنبلة ذرية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد حطّمه المصريون وسيطروا عليه فى ست ساعات فحسب .

سرمديًا ، وأن المصريين لم يعودوا قادرين على القتال ، أو على شن أى حرب شاملة حاسمة ..

وبعيدًا عن كل هذا .

أو بمعنى أدق : فوق كل هذا ..

وعلى ارتفاع كيلومترين تقريبًا ، بعيدًا عن كل مجالات الرادار المعروفة(*) ، حلقت طائرة حربية مصرية ، من ذلك الطراز ، المعدّ لنقل الجنود ورجال المظلات ، متجاوزة منطقة البحيرات(**) ، وبداخلها عدد من رجال الصاعقة المصريين ، جلسوا بكامل معداتهم ، على نحو يوحى بأنهم فى طريقهم إلى مهمة خاصة ، من تلك المهام التى تم تدريبهم للقيام بها ، وآذانهم كلها تصغى فى اهتمام وانتباه شديدين لقائدهم ، وهو يراجع معهم تفاصيل المهمة للمرة الأخيرة ، قائلاً :

ـ غدًا تبدأ معركة التحرير .. تلك المعركة التى انتظرتموها طويلاً ، وتدرّبتم من أجلها كثيرًا .. المعركة التى ستسترد بها (مصر) عزّتها وكرامتها بإذن الله ، وترد الصاع صاعين للإسرائيليين ، الذين باغتونا بهجومهم منذ ست سنوات ، فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ م ، ونجحوا فى احتلال (سيناء) ،

(*) الرادار : اختراع يستخدم لكشف الأجسام ، من مسافات بعيدة ، يعتمد عمله على ارسال موجة راديو قصيرة ، وتركيزها ، ثم استقبال الحزمة المنعكسة ، باستخدام شاشة أشبه بشاشة التليفزيون ، تتحدّد عليها صورة الهدف ، أسهم فى اختراعه سير (روبرت واطسون واط) .

(**) بحيرة التمساح ، والبحيرات المرة .

وتكبيدنا هزيمة فادحة .. غدًا تحين لحظة الثأر يا رجال .. ستشن قواتنا هجومها الشامل على الجيوش الإسرائيلية ، فى سبيل تحرير (سيناء) ، واستعادة الكرامة العربية .. ولابد أن نعترف جميعًا بأن الجيش الإسرائيلى ليس ضعيفًا أو ساذجًا ، وقادته ليسوا بالأغبياء ، وأنهم ، ما إن يتلقّوا الضربة الأولى ، حتى يبدءوا تحركهم بأقصى سرعة ، ويدفعوا قواتهم وجيوشهم الاحتياطية إلى الجبهة ، لقلب ميزان المعركة لصالحهم .

واعتدل يلتقط نفسًا عميقًا ، ملأ صدره القوى ، قبل أن يضيف بلهجة حماسية حاسمة :

ـ وهنا يحين دوركم أيها الرجال .

انتشت نفوسهم بالكلمة ، واشتعلت الدماء فى عروقهم للعبارة ، وهتف بعضهم فى حماس منقطع النظير :

ـ كلنا فداء للوطن .

واحد منهم فقط لم ينبس ببنت شفة ..

والعجيب أنه كان أكثرهم حزنًا وحماسًا وانتماءً ..

كان يشعر ـ كعهده دائمًا ـ أن الكلمات ، مهما بلغت بلاغتها ، لن يمكنها أبدًا أن تعبّر عمّا يجيش به صدره ..

لا أحد يمكنه أن يشعر بما يعنيه له اسم (مصر) ..

(مصر) الأم ..

والوطن ..

والحياة ..

كانوا جميعًا فى ذروة الحماس ، ولكنه وحده كان يعتلى هذه الذروة ..

هذا لأنه لم يكن أبدًا شخصًا عاديًا ..

إنه ، ودائمًا ، من طراز خاص ..

خاص للغاية ..

طراز اعتاد كتمان كل مشاعره فى أعماقه ، مؤمنًا بأن الفعل وحده ، هو مقياس جودة وصلابة الرجال ..

صامت هو ، فى معظم الوقت ..

كتوم دائمًا ..

نادرًا ما يتبادل الحديث مع رفاقه ، وإن لم يخل ثغره قط من ابتسامة هادئة بسيطة ، جذبت إليه قلوب الجميع ، واكتسبت حبهم وثقتهم واحترامهم ..

« مهمتكم هى قطع خطوط مواصلات العدو وإمداداته .. »

نطق القائد هذه العبارة فى حزم ، فأرهف الجميع آذانهم ، وضاعفوا انتباههم ، وهو يشير بعصاه الرفيعة إلى نموذج مجسَّم لـ (سيناء) ، استقرّ عند أقدامهم ، على بطن الطائرة ، مستطردًا :

ـ عندما يهاجم جيشنا خط (بارليف) ، سيحاول العدو تعزيز قواته وتواجده هناك ، وسيدفع طابورًا من الدبابات نحو الخطوط الأمامية ، وطبقًا للمعلومات التى أمَّدنا بها جهاز المخابرات ، سيعتمد العدو على أحدث طراز وصله من الدبابات ، وهذا الطراز يفوق أحدث ما لدينا من مدرعات ، ثلاث مرات على الأقل ، ومواجهته على نحو مباشر ستكون عسيرة ، وخصوصًا فى

الساعات الأولى للقتال ، وقبل أن يكتمل عبور قواتنا ومدرعاتنا إلى الضفة الشرقية .

ثم اعتدل ، مضيفًا فى حسم :

ـ باختصار .. نجاح ذلك الطابور من الدبَّابات الحديثة ، فى الوصول إلى الخطوط الأمامية ، قبل أن نستعد لمواجهته ، قد يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ، ولهذا فمن الضرورى أن ننجح فى إيقاف تقدّمه ، وأن نكبّده أفدح خسائر ممكنة ..

وأدار عينيه فى وجوههم ، قبل أن يتابع :

ـ نجاحكم فى مهمتكم العسيرة ، قد يتوقَّف عليه مصير الحرب كلها ، لذا فمن المحتم أن تنجحوا .. مهما كان الثمن ..

مهما كان الثمن ..

اخترقت العبارة كيانه ، واستقرّت ملتهبة فى وجدانه ..

ولم يكن يحتاج إلى المزيد ..

طوال الفترة التى تلقّى فيها تدريباته ، لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا ..

حتى فى العمليات التى شارك فيها ، فى أثناء حرب الاستنزاف(*) ، كان يثبت أنه سريع الفهم والاستيعاب ، جم النشاط والحماس ،

(*) حرب الاستنزاف : مصطلح أطلق على سياسة عسكرية ، اتخذها القادة المصريون ، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ م ، وتعتمد على عمليات عسكرية انتحارية محدودة ، على الضفة الشرقية للقناة ، تقوم بها قوات خاصة ، لتكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر ، دون إشعال الحرب الشاملة .

يكفيه أن يسمع الكلمة السحرية ، حتى ينطلق كالليث ، ويقاتل كالفهد ، ويبذل أقصى طاقاته للفوز والنصر ..

كلمة (مصر) ..

كل من عمل تحت إمرته انبهر بأدائه ..

كلهم أجمعوا على أنه ـ منفردًا ـ قادر على القيام بعمل فرقة انتحارية كاملة ، لو اقتضى الأمر .

ولقد أثبت هذا فى مرات عديدة ..

ومازال مستعدًا لإثباته ..

« اشتعل المصباح الأحمر يا رجال .. »

نطقها القائد فى اهتمام مشوب بالتوتر ، وهو يشير إلى مصباح أحمر مضاء ، فى سقف الطائرة ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد وصلنا إلى النقطة المنشودة .. ستقفزون جميعًا ، عندما يضاء المصباح الأخضر ، وانتبهوا جيدًا ، لن يتم فتح المظلات قبل ألف ومائة(*) ، حتى لا ترصدكم رادارات العدو .. المفروض أن هبوطكم هنا محاط بسرية تامة .. حافظوا على وجودكم ، حتى تحين اللحظة المناسبة .. لا تتورطوا فى أية اشتباكات جانبية ، قبل ظهور طابور الدبابات ، وتذكروا دائمًا أن مهمتكم محدودة وواضحة .. امنعوا وصول تلك الدبابات إلى الخطوط الأمامية بأى ثمن .. هل تفهمون ؟ بأى ثمن .

(*) يستخدم المظليون هذه الوسيلة ، لتحديد الزمن اللازم ، قبل فتح المظلة ، بغرض تأمين عملية الهبوط وضمان سلامتها ، حيث يبدأ العد بألف وواحد .. ألف واثنين .. وهكذا .

اشتعل المصباح الأخضر فى تلك اللحظة ، فهتف القائد :

ـ حانت اللحظة يا رجال .. هيَّا .. على بركة اللّه .

وبلا تردد ، وثب رجال الصاعقة من الطائرة ، واحدًا بعد الآخر ، وعلى رأسهم قائدهم ..

وفى أعماق ذلك الصامت ، راح العدّ يجرى فى سرعة ..

ألف وواحد .. ألف واثنان .. وثلاثة ..

كان جسده يهبط بسرعة مدهشة ، مع عجلة الجاذبية الأرضية (*) ، والصحراء تتضح تدريجيًا ، مع اقترابه بهذه السرعة من الأرض ، ورفاقه يبدون من حوله أشبه بطيور صغيرة ، حانت لحظة عودتها إلى العش ، ورأى بعضهم يفتح مظلته ، وهو يواصل العد ..

(*) عجلة الجاذبية الأرضية : سرعة سقوط جسم ما ، بفعل الجاذبية الأرضية ، وهى تساوى ٩٨١ سم فى الثانية الواحدة ، أو ٣٢,٢ قدم / ثانية .

ألف وثمانية وتسعون .. ألف وتسعة وتسعون .. ألف ومائة ..

كانت الأرض قد اقتربت كثيرًا .. ومظلات كل من سبقوه ترتفع أمام عينيه ، وظروف الهبوط مواتية للغاية ، و ...

ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة ..

لقد جذب حبل مظلته ، كما يفعل فى كل مرة ، ولكن ..

المظلة لم تستجب ..

لقد رفضت أن تنفتح ، وتركت جسده يهوى نحو صحراء (سيناء) ..

وبأقصى سرعة ..

* * *

احتقن وجه قائد رتل السيارات الإسرائيلى ، وهو يصرخ فى وجه سائقه غاضبًا :

ـ ماذا تعنى بقولك السخيف هذا ؟.. كيف ضللت طريقك وسط الصحراء ؟!..

أهى المرة الأولى ، التى تقود فيها سيارتى ، فى قلب (سيناء) ؟!

ارتبك السائق ، وهو يقول :

ـ لست أدرى ماذا حدث هذه المرة يا سيّدى ؟!.. لقد تلفت البوصلة ، وهذه التلال هناك كانت تعطى ظلالا عنيفة ، و ...

قاطعه القائد فى ثورة :

ـ لا أريد أية مبرّرات .. أنت سائق فاشل .. هذا هو المبرّر الوحيد .. هل يمكنك أن تخبرنى ، كيف أبرّر فشلك هذا أمام

القيادة ؟!.. كيف أشرح لهم أننا كنا فى طريقنا إلى الغرب ، فوجدنا أنفسنا فى الشرق ؟!.. خمس سيارات تحت قيادتى ، وأكثر من ثلاثين جنديًا يضلّون طريقهم فى قلب الصحراء ، ويخسرون مواقعهم المحدودة ، بسبب غباء سائق .. ماذا أفعل بحق الشيطان ؟.. هل يكفى أن تنطبق السماء على رأسك ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى السماء ، قبل أن يهتف فى انفعال :

ـ يا للشيطان !

رفع الجميع عيونهم إلى السماء ، مع هتافه ، وأبصروا فى آن واحد تلك النقاط التى توزّعت فيها على نحو عشوائى ، والتى راح بعضها يتحوّل إلى كرات أكبر حجمًا ، فى حين صاح القائد ، وهو يلتقط مسدسه بحركة غريزية :

ـ فليقطع ذراعى إن لم يكن هذا فريقًا من المظليين المصريين .

وانتفض جسده من فرط الانفعال ، وهو يربّت على ظهر سائقه فى قوة ، مستطردًا :

ـ مرحى يا رجل .. يبدو أن حاستك السادسة(*) هى التى قادتك إلى هذا الخطأ الليلة .. ويالها من مفارقة !.. ربما تتلقى وسامًا بسبب خطأ سخيف .

ولوّح بيده لرجاله ، هاتفًا :

(*) الحواس الخمس المعروفة هى : السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والكلام ، ويطلق مصطلح (الحاسة السادسة) على القدرة على الشعور بالخطر .

ـ هيا .. أطفئوا أنوار سياراتكم ، وأخفوها فى أى مكان ، ثم انتشروا فى المنطقة ، وانتظروا إشارتى ، لنحصد هؤلاء المصريين حصدًا .

قالها ، وقهقه ضاحكًا فى جذل ظافر ، مستطردًا :

ـ لقد اختاروا هذه البقعة لهبوطهم ، فى عبقرية نادرة ، لأنهم يعلمون أنها ستكون خالية من الدوريات تمامًا الليلة ، مع حركة الانتقالات الدورية ، بمناسبة عيد (كيبور)(*) .

ثم ربّت على ظهر سائقه مرة أخرى فى عنف ، مضيفًا :

ـ ولكن الخطأ الذى ارتكبته أفسد خطتهم يا رجل .. كم أشعر بالسخرية ، كلما تخيّلت وجوه رجال مخابراتهم ، الذين أرهقوا أنفسهم فى جمع المعلومات ؛ لتحديد نقطة الهبوط ، ثم نفاجئهم نحن بسحق رجال مظلاتهم سحقًا .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يشير للرجال ، قائلاً فى حزم :

ـ هيا .. أعدّوا أسلحتكم .. إنهم لا يتوقعون وجودنا .. سنستفيد بعامل المفاجأة إلى أقصى حد .. وبالمناسبة ..

وتألّقت عيناه ، وشفتاه تحملان ابتسامة كبيرة جذلة ، مع استطرادته :

ـ لا أريد أحياء .

وعاد يقهقه ضاحكًا ..

* * *

كانت مفاجأة حقيقية له ألا تنفتح مظلته ..

(*) عيد كيبور : عيد الغفران عند الطوائف اليهودية .

لقد اختبرها ثلاث مرات متتالية على الأرض ، كما تقتضى التعليمات ، قبل أن تُقلع الطائرة ، وفى كل مرة كانت تعمل بشكل طبيعى ..

ولكن ما فائدة التفكير فيما حدث ؟!..

المهم الآن هو ما سيحدث ..

الأرض تقترب بسرعة كبيرة ، وكلما أصبحت أكثر قربًا ، تفقد المظلة أهميتها وفاعليتها ، حتى لو انفتحت ..

وبتقدير جزافى سريع ، أمامه خمس ثوان فحسب لحسم الموقف ..

وإلا ...

وفى سرعة وحزم ، حلّ حزام مظلته ، وانتزعها من كتفيه ، وفحص قفلها الخاص ..

وعرف السبب من اللحظة الأولى ..

لقد انعقد جزء من ذلك الخيط ، الذى يفتح المظلة ، مع سلسلة القفل ، فأعاق عملية الجذب الطبيعية ..

وفى حسم شديد ، وسرعة مدهشة ، وثبات أعصاب يحسد عليه ، راح يحلّ العقدة ، ويفصل الخيط عن السلسلة ..

والأرض تقترب أكثر وأكثر ..

وعندما انتهى من عمله ، كان قد تجاوز بالفعل الحد الآمن لفتح المظلة ، وبدت له الأرض أقرب مما يتصوّر ..

ثم إنه قد ابتعد كثيرًا عن ذلك الموقع ، الذى هبط فيه رفاقه ، مع تحكمهم البارع فى اتجاهات الهبوط ..

ولكن ما من سبيل آخر ..

كان المفروض أن يعيد المظلة إلى كتفيه ، حتى لا ينتزعها ضغط الهواء منه ، عندما تنفتح ، ولكن الوقت لم يكن يكفى لفعل هذا ..

وهكذا تشبّث بحزامى المظلة ، بكل ما يملك من قوة ، وأحاطهما بساعده الأيسر ، الذى برزت عضلاته على نحو عجيب ، ثم جذب الخيط ..

وانفتحت المظلة هذه المرة ..

ومع عنف الهواء ، كادت تنتزع ساعده من جسده ، وتفلت منه تمامًا ، لولا أن استنفر كل ذرة من قوته ، وتشبّث بالحزامين بقبضته اليمنى أيضًا ..

إلا أن قصر المسافة ، لم يسمح للمظلة بالعمل كما ينبغى ..

صحيح أن سرعة الهبوط انخفضت كثيرًا ، ولكن الصحراء مازالت تقترب فى سرعة ، و ...

وارتطم جسده بالرمال فى عنف ..

كانت الصدمة أكبر مما توقّع ، حتى أن كل عظمة فى جسده صرخت ألمًا ، وهو يتدحرج فوق الرمال ، ويحيط به قماش المظلة ..

ومن بعيد ، تناهى إلى مسامعه صوت يصرخ بالعبرية :

ـ الآن يا رجل .

ثم ارتفع دوى رصاصات من خلف التل ، ممتزجًا بصوت قائد مجموعته ، وهو يصرخ :

ـ إنه فخ .. قاتلوا بكل قوتكم .. إنه فخ ..

وتعالى دوى الرصاصات بشدة ، حتى بدا له وكأنه يدوى فى أعماقه ، وحاول النهوض ، وهو يتشبّث بمدفعه الآلى بكل قوته ..

ولكن فجأة ، أظلم كل شىء من حوله ، و ...

وفقد الوعى ..

على رمال (سيناء) .

* * *

٢ ـ الرمـــال ..

السادس من أكتوبر .. عام ١٩٧٣ م ..

العاشر من رمضان .. عام ١٣٩٣ هـ ..

توسّطت الشمس كبد السماء ، وألقت أشعتها الحارة فوق الرمال ، التى تصاعدت حرارتها تدريجيًا ، وانطبعت فوقها آثار ضئيلة ، لعقرب أسود صغير(*) ، راح يتحرّك فوقها فى بطء ، وذيله القائم فوقه يهتزّ فى شىء من التوتر ، فى رحلة بحثه عن فريسة ، يشبع بها جوعه ، بعد أن انتصف النهار أو كاد ..

ودون اهتمام خاص ، تسلّق العقرب جسد ذلك الراقد على الرمال ، الذى سكنت حركته تقريبًا ، إلا من أنفاس شبه منتظمة ، يعلو بها صدره ويهبط فى رفق ..

وعبر العقرب ذلك الجسد فى بطء ، وكأنما يعبر صخرة عادية ، من تلك الصخور التى تتناثر أحيانًا هنا وهناك ، فى قلب الصحراء ، حتى بلغ عنقه ، فتسلّل عبره إلى وجهه وأنفه ، و ...

واستيقظ الشاب بغتة ..

استعاد وعيه فى نفس اللحظة ، التى عبر فيها العقرب أنفه ..

(*) العقرب : عنكبى نشيط ، يكثر بالمناطق الدافئة والحارة ، ويتغذّى على الحشرات ، له فى مقدّمة جسمه كلابتان قويتان ، وفى المؤخرة زبان مرفوع لأعلى ، ينتهى بمخلب قوى ، ينفذ منه السم ، عند انغراسه فى جسم الفريسة ، وهو سم شديد الفاعلية والتأثير .

وفى تلك اللحظة ، كان أى تصرّف عنيف ، وأية حركة مباغتة ، أمر كاف ليتوتر العقرب ، ويشعر بالخطر ، و ...

ويلسع خصمه ..

وهنا تجلّت قوة أعصاب الشاب وشجاعته ..

كان قد استعاد وعيه على الفور ، ومازال ذهنه يعانى بعض التشوّش والارتباك ، وعلى الرغم من هذا ، فلم يكد يلمح العقرب الأسود ، حتى تجمّد فى مكانه تمامًا ، وحبس أنفاسه كلها ، وحرص أشدّ الحرص على ألاّ تصدر منه أدنى حركة ، تكفى لإثارة ذلك الكائن الضئيل القاتل ..

لذا فقد واصل العقرب رحلته فى هدوء ، وقفز من الأنف إلى العين اليسرى ، ثم الأذن ، وبعدها عاد إلى رمال الصحراء ..

وعندئذ فقط ، اعتدل هو فى سرعة ، وانتزع خنجره من غمده ، وهوى به على العقرب ، ليبتر ذيله عن جسده ..

وبعدها بدأ يعى ما حوله ..

إنه يرقد على رمال (سيناء)(*) ، فاقد الوعى منذ فترة ليست بالقصيرة ؛ لأن الشمس توسّطت السماء أو كادت ، وحرارة جسده أكثر ارتفاعًا ..

(*) سيناء : محافظة فى شمال شرق (مصر) ، تأخذ شكل مثلث ، قاعدته فى شمال ساحل البحر الأبيض المتوسّط ، وينتهى جنوبًا (برأس محمد) ، فى البحر الأحمر ، ويحده شرقًا خليج العقبة ، وغربًا قناة السويس .. وبها دير (سانت كاترين) ، وعدد من المناجم الثرية ، وآبار البترول .

وبسرعة ، وبدون مزيد من التفكير ، نهض يجمع مظلته ، ودفنها فى رمال الصحراء ، ثم حمل أسلحته كلها ، ومدفعه الآلى ، وتأكّد من صلاحية جهاز اللاسلكى الذى يحمله ، قبل أن يتوجّه ببصره وتفكيره إلى التبة القريبة ..

لم يكن جسده قد تخلّص من آلام الرضوض والكدمات بعد ، إلا أن ذاكرته راحت تستعيد كل ما سمعه أمس ، قبل أن يفقد وعيه تمامًا ، فتوتّرت أعصابه ، وأسرع الخطا نحو قمة التبة ، و ...

واتعقد حاجباه فى توتر وانفعال عنيفين ..

ولقد كان المشهد بشعًا بحق ..

كل رفاقه صرعى برصاصات العدو الغادرة ، على رمال (سيناء) ، التى امتزجت بدمائهم الطاهرة .

كلهم بلا استثناء ..

حتى القائد ، تلقّى أكثر من تسع رصاصات ، فى صدره وبطنه ورأسه ..

ويا للبشاعة !..

أى شخص فى موضعه ، كان سيشيح بوجهه على الأقل ، حتى يتجنّب المشهد الرهيب ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد ظلّ يتطلّع إلى الجثث الممتزجة بالدماء ، وكأنما يصرّ على أن يملأ عينيه وكيانه كله بهم ، حتى لا ينسى ما أصابهم قط ..

نعم .. كان يصرّ على ألا ينسى ..

سيذكر هذا إلى الأبد ..

سيذكر أن جنود العدو قتلوا كل رفاقه ، دون أن يحاولوا أسرهم ، لم يجشّموا أنفسهم حتى مشقة دفن جثثهم ..

لقد تركوها نهبًا للذئاب والطيور الجارحة ، دون رحمة أو اهتمام ..

وفى أعماقه ، نمت دمعة كبيرة ، ولكنها أبدًا لم تجد سبيلها إلى عينيه ..

لا وقت لديه للدموع ..

إن عليه أن يحفر حفرة كبيرة ..

مقبرة جماعية ، تكفى لدفن الجميع ..

وبكل الهمة والألم ، راح يحفر .. ويحفر .. ويحفر ..

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة وأربعين دقيقة بالضبط ، كان قد انتهى من مهمته ، ووارى رفاقه كلهم التراب ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، ضغط زر جهاز الاتصال ، لينقل الخبر إلى (القاهرة) ..

ولكن فجأة ، تراجع فى قراره ..

كلاّ ..

لن يبلغ (القاهرة) ..

لن يتسبّب فى إرباك خطة الحرب كلها ..

لقد هبطت فرقته هنا ، وبذلت دماءها على رمال (سيناء) الغالية ، من أجل تحقيق هدف واحد ..

منع وصول طابور الدبّابات الحديثة إلى الخطوط الأمامية للعدو ..

مهما كان الثمن ..

وانعقد حاجباه فى عزم وصرامة ، مع تلك الفكرة الجنونية ، التى ملأت رأسه ، واشتعلت فى كيانه ، وجرت فى عروقه مجرى الدم ..

سيواجه وحده طابور الدبّابات ، وسيبذل قصارى جهده ؛ لمنعه من الوصول إلى الصفوف الأمامية للعدو ..

وبأى ثمن ..

* * *

انعقد حاجبا القائد العسكرى الإسرائيلى لجبهة (سيناء) ، وهو يراجع تقارير المراقبة الدورية ، قبل أن يرفع عينيه إلى قائد رتل السيارات ، قائلاً فى غضب وحدة :

ـ أكثر ما يحنقنى هو أنك تشعر بالفخر لما فعلت .

ارتسمت الدهشة على وجه قائد الدورية ، وهو يقول :

ـ أليس من المفروض أن أفعل .. لقد قضى رجالى على فرقة كاملة من المظليين المصريين ، دون أن نفقد سوى أربعة رجال .. ما النصر إذن ، لو لم يكن هذا ؟

صاح قائده فى وجهه :

ـ أما زلت تذكر ما تعلّمته من الدراسات العسكرية يا رجل ؟!.. ألم يخبرك أحد عن أهمية وضرورة الحصول على أسرى أحياء ، من قوات العدو ؟!

انتفض قائد الدورية فى حدة ، وهو يقول :

ـ أى أسرى ؟!.. إنك تتحدّث بهذه الغطرسة لأنك تجلس خلف مكتبك .. من الواضح أنك لا تعرف كيف يقاتل هؤلاء الرجال .. لقد أعددنا لهم فخًا محكمًا ، وباغتناهم بفتح النيران عليهم ، دون سابق إنذار ، وعلى الرغم من هذا فقد قاتلوا كالوحوش .. ياللشيطان !.. لن أنسى ذلك المشهد ما حييت .. كانت الدماء تنزف من كل جزء فى أجسادهم ، وسبّاباتهم مازالت تضغط أزندة مدافعهم ، وأيديهم تمتلك القوة الكافية ، لإلقاء قنابلهم علينا .. لقد كان جحيمًا رهيبًا ، حتى أننى تصوّرت أننا نحن الذين وقعوا فى الفخ ، ولست أدرى ، حتى هذه اللحظة ، كيف أبدناهم عن آخرهم ، دون أن نخسر أكثر من هؤلاء الرجال الأربعة !

دقّ قائده سطح مكتبه بقبضته ، صارخًا :

ـ راجع أقوالك يا رجل .. الدنيا كلها تعرف أن الجيش الإسرائيلى هو أقوى جيش فى العالم ..

أطلق الرجل ضحكة عصبية ساخرة ، وهو يقول :

ـ رويدك يا سيّدى .. أنا ضابط فى ذلك الجيش ، ولست واحدًا من هؤلاء السذج ، الذين توجهون إليهم أبواق دعاياتكم .. أنا أعرف الحقيقة كلها ، وأشاهد بنفسى ما يحدث ، داخل صفوف الجيش القوى العظيم ..

لوّح قائده بيده فى وجهه ، صائحًا :

ـ لو أنك تفهم شيئًا ، لما قتلت المظليين المصريين كلهم .. ألم تسأل نفسك : لماذا اختاروا هذه البقعة للهبوط ، على الرغم من أنه لا توجد حولها أية أهداف عسكرية مناسبة لهم ؟!.

بدت الحيرة على وجه قائد الدورية ، وتمتم مرتبكًا :

ـ ربما أنهم ..

لم يجد ما يكمل به عبارته ، فانعقد حديثه فى حلقه ، وتضاعفت معالم الحيرة فى وجهه ، فتابع رئيسه فى حدة أكثر :

ـ ألم تسأل نفسك : لماذا أرسل المصريون فرقة مظلات كاملة هذه المرة ؟.. ألم تحاول فحص معداتهم وأسلحتهم ؟!.. ألم تنتبه إلى أن تسليحهم يفوق التسليح التقليدى المعتاد ، فى المهمات البسيطة ؟!..

ثم تحوّل صياحه إلى صراخ ، وهو يختم حديثه :

ـ ألم يدر بخلدك لحظة أن العملية تفوق المعتاد ؟!.. ألم تتساءل لحظة واحدة :

ما الهدف هذه المرة ؟!

قال قائد الدورية فى حذر :

ـ وماذا يمكن أن يكون هدفهم ؟

صرخ قائده :

ـ هل تسألنى ؟

ثم استدار يشير إلى خريطة (سيناء) ، مستطردًا :

ـ ها هو ذا هدفهم .

ارتفع حاجبا قائد الدورية فى دهشة واستنكار ، قبل أن يهتف :

ـ مستحيل !.. لن يخطر ببال المصريين أبدًا أن ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اقتحم أحد مساعدى القائد العسكرى الحجرة ، وانتفضت كل ذرة فى كيانه ، وهو يصرخ :

ـ سيّدى القائد .. المصريون عبروا قناة (السويس)(*) ، ويقتحمون الآن خط (بارليف) .

وهنا شهق قائد الدورية شهقة عنيفة ، كادت تنتزع روحه من جسده ..

لقد كانت المفاجأة مدهشة ..

بل مذهلة ..

مذهلة تمامًا ..

* * *

شقّ سماء (سيناء) صوت كهزيم الرعد ، عندما عبرتها الطائرات المصرية المقاتلة دفعة واحدة ، وفى توقيت متناسق ، إلى حد يدعو للدهشة والإعجاب ، وراحت تصلى خط (بارليف) الأسطورى نيرانها ، وتلهبه بقذائفها ، فى نفس اللحظة التى دوت فيها المدافع المصرية على الجانب الغربى لقناة (السويس) ، وانفجرت قنابلها فى تحصينات العدو ومخازنه ، وفى خط (بارليف) ، لتجبر الإسرائيليين على الانزواء داخلها ، فى حين انطلق الجنود المصريون البواسل يعبرون قناة (السويس) ، أقوى مانع مائى فى التاريخ ، وحناجرهم تطلق أعظم هتاف فى الكون كله ..

(*) قناة السويس : قناة ملاحية ، شمال شرق (مصر) ، تمتد من (بورسعيد) ، على البحر المتوسط ، حتى (بور توفيق) بالقرب من (السويس) ، وهى أهم شريان ملاحى فى العالم ، تم حفرها فى عهد الخديوى (سعيد) (١٨٥٩ ــ ١٨٦٩ م) ، وخضعت للسيطرة الإنجليزية ، حتى أممها الرئيس (جمال عبد الناصر) فى (٢٦ يوليو ١٩٥٦ م) .

اللّه أكبر ..

اللّه (سبحانه وتعالى) أكبر وأقوى من المعتدين ..

ومن الدنيا كلها ..

وكما توقّع الخبراء تمامًا ، لم يكد العدو يستوعب ما حدث ، ويفيق من صدمته الأولى ، حتى أطلق الإشارة لطابور الدبّابات الحديث ، الذى انطلق من مكمنه على الفور ، فى طريقه إلى الخطوط الأمامية ، للتصدّى للهجوم المصرى العنيف ..

وفوق تبة صحراوية طبيعية ، رقد هو بكامل تسليحه ، وبعشرات القنابل اليدوية التى يحملها ، والتى استعار معظمها من جثث رفاقه قبل دفنهم ، يراقب الطريق بمنظاره المقرّب ، فى انتظار ظهور طابور الدبّابات فى أية لحظة ..

وفى أعماقه ، راح يتمنى أن تكون المخابرات المصرية محقة فى تقديرها ، وفيما لديها من معلومات ، تشير إلى أن طابور الدبابات الحديثة سيتخذ هذا الدرب بالتحديد ، فى ظروف الطوارئ ..

وما زال يذكر ذلك اليوم ، الذى شرح لهم فيه قائده (رحمه الله) هذه الخطة ..

يومها سأل القائد فى حيرة :

ـ مادامت مخابراتنا قد نجحت فى تحديد موقع الطابور بهذه الدقة يا سيّدى ، فلم لا يتمّ قصفه بوساطة الطيران ؟!

ابتسم القائد يومئذ ، وهو يقول :

ـ سؤال جيّد ، وكنت أتوقّعه منك بالذات .. نعم .. لماذا لا يتم قصف الطابور مباشرة بالطائرات ، بدلاً من المخاطرة بإرسال فريق خاص لأداء المهمة ؟!.. الجواب هو أن هذه الدبابات الحديثة مزوّدة بوحدة صواريخ دفاع جوى من طراز خاص ، يتم توجيهها بوساطة الكمبيوتر وأشعة الليزر ، كما أن بها رادارات خاصة ، يمكنها رصد الطائرات ، من مسافة ثلاثين كيلو مترًا ، وإطلاق الصواريخ الدفاعية نحوها ، قبل سبع ثوان .. إنها أحدث المخترعات والمبتكرات الأمريكية ، التى تحظى بها (إسرائيل) ، بصفتها الطفل المدلّل لأمريكا ، ورجالنا لم يتدرّبوا على التعامل معها بعد .

سأله فى اهتمام :

ـ أهذا يعنى أننا لو نجحنا فى نسف وحدة صواريخ الدفاع الجوى ، تكون المهمة قد نجحت ؟.. أعنى أننا بذلك نكون قد أزحنا العقبة ، وأصبح بإمكان طائراتنا قصفها ، وتدمير الطابور كله .

أومأ القائد برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح نظريًا ، ولكن الإسرائيليين يخفون تلك الوحدة بين طابور الدبابات ، فى هيئة تماثل الدبّابات نفسها ، ويبدلون

موقعها فى كل مرة ، بحيث تستحيل معرفته ، أو تحديد موقع الوحدة ، لذا فليس أمامنا سوى أن نهاجم الطابور كله .

« من القيادة إلى (اعتراض ـ ٣) .. حدد موقعك ، ومدى استعدادك للتصدّى لطابور النمل ، ومنعه من بلوغ علبة السكّر .. » ..

انبعث ذلك النداء فجأة من جهاز اللاسلكى ، الذى انتزعه من جثة القائد ، فأسرع يلتقطه ، وضغط زر الاتصال فيه ، وهو يجيب :

ـ من (اعتراض ـ ٣) إلى القيادة .. أنا فى الموقع (صفر) ، وما زلت فى انتظار طابور النمل .

مرّت فترة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت حذر ، يقول :

ـ من القيادة إلى (اعتراض ـ ٣) .. حدّد شخصيتك وموقعك .

أجابه فى حزم :

ـ أنا (صاعقة ـ ١٤٤) ، أتحدّث من الموقع (صفر) .

مضت فترة صمت أخرى ، قبل أن يسأله صوت صارم متشكّك :

ـ لماذا تجيب النداء يا (صاعقة ـ ١٤٤) ؟!.. أين قائدك ، وما موقف الفرقة ؟!

أجابه على الفور ، فى صوت يحمل رنة حزن ومرارة :

ـ الجميع أبيدوا فى كمين مباغت أيتها القيادة .. القائد ، والرفاق .. كل الرفاق .. الجميع لقوا مصرعهم .

هتف صاحب الصوت فى ارتياع :

ـ ماذا تعنى يا (صاعقة ـ ١٤٤) ؟!.. ألم يعد هناك سواك ؟

أجابه فى حزم :

ـ نعم .. لم يعد هناك سواى ، ولكن المهمة ستتم بإذن اللّه .

صاح صاحب الصوت :

ـ ستتم ؟!.. لم يعد هناك وجود للمهمة يا رجل .. لماذا لم تبلغنا من قبل ؟

أجابه فى لهجة أشدّ حزمًا وعنادًا :

ـ المهمة ستتم بإذن اللّه .

هتف صاحب الصوت :

ـ هل جننت يا هذا ؟.. كان المفروض أن ...

أبعد الجهاز عن أذنه بحركة سريعة ، قبل أن يكمل مندوب القيادة عبارته ، ووضع منظاره المقرّب على عينيه مرة أخرى ، ثم عاد يهتف عبر جهاز الاتصال :

ـ لقد وصل طابور النمل .. أنا مستعد لأداء المهمة .

هتف الصوت ذاهلاً :

ـ مستعد لماذا ؟

ولكن الشاب أنهى الاتصال بضغطة زر حازمة ، وعلّق الجهاز فى حزامه ، ثم ثبّت خوذته فوق رأسه ، وجذب إبرة مدفعه الآلى ، ورقد يراقب طابور الدبّابات الحديثة ، وهو يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

* * *

٣ ـ حرب رجل واحد ..

وقف قائد القوات الخاصة ، وسط زملائه من قادة القوات ، حول مائدة العمليات الحربية ، يتابعون مع وزير الحربية(*) ، ورئيس الجمهورية ، تطورات القتال ، فوق نموذج ضخم مجسّم لساحة المعركة ، وجرع الرئيس غليونه بضع لحظات ، قبل أن يسأل الوزير :

ـ ما موقف الأولاد هناك ، فى قلب (سيناء) ؟

أجابه الوزير بسرعة :

ـ كلهم فى مواقعهم يا سيادة الرئيس .. اطمئن .. إنهم يعرفون كيف يؤدون واجبهم .

أومأ الرئيس برأسه ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا .. أعلم هذا .

ثم أشار بطرف الغليون إلى قائد القوات الخاصة ، مستطردًا :

ـ إننا نعتمد اعتمادًا كبيرًا على رجالك .

شدّ القائد قامته ، وهو يجيب فى ثقة :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس .. رجالى تلقّوا تدريبات خاصة ، ستجعلهم يبهرون الإسرائيليين ، عندما تحين لحظة المواجهة معهم ، وعندما ...

(*) فى تلك الأيام ، كان لقب وزير الدفاع هو : (وزير الحربية) .

قاطعه ظهور أحد رجاله ، وهو يؤدى التحية العسكرية فى احترام ، ويمد يده إليه بإشارة عاجلة ، فالتقطها قائلاً :

ـ معذرة يا سيادة الرئيس .. يبدو أنها رسالة عاجلة من الرجال .

وألقى نظرة على الورقة ، ثم ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، كانت تكفى ، فى ظل هذه الظروف ، ليعقد الرئيس حاجبيه فى توتر ، ويهتف الوزير :

ـ ماذا هناك يا رجل ؟

رفع قائد القوات الخاصة عينيه إليهما فى ارتياع ، قائلاً :

ـ فرقتى الخاصة (اعتراض - ٣) ، تمت إبادتها بالكامل ، فى قلب (سيناء) .

نفث الرئيس دخان سيجارته ، وسعل فى قوة ، فى حين قال الوزير :

ـ ماذا تقول ؟!.. أليست هذه هى الفرقة المسئولة عن منع طابور الدبّابات الحديثة من الوصول إلى الخطوط الأمامية للعدو ؟

أومأ قائد القوات الخاصة برأسه ، قائلاً :

ـ إنها هى .

تبادل الرئيس والوزير نظرة شديدة التوتر ، فاستدرك قائد القوات الخاصة بسرعة :

ـ لقد تبقى منها رجل واحد.. اسمه الكودى (صاعقة - ١٤٤) ، ولقد وصل بالفعل إلى الموقع (صفر) .

قال الوزير فى حدة :

ـ وما الذى يمكن أن يفعله رجل واحد ؟

نفث الرئيس دخان غليونه فى عمق ، قبل أن يقول :

ـ لا أحد يدرى .. فى الحروب ، رجل واحد قد يصنع فارقًا ضخمًا ..

ران عليهما الصمت لحظات ، بعد عبارة الرئيس ، ثم قطعه قائد القوات الخاصة ، وهو يقول :

ـ دعونا نمنحه الفرصة إذن .. إنه هناك ، وكما يقول سيادة الرئيس : لا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يحدث فى الحروب .. ثم إنه ليس أمامنا سوى هذا ، أليس كذلك ؟

تبادل الرئيس نظرة أخرى مع الوزير ، ثم قال :

ـ هذا يتعارض مع خططنا تمامًا ، ولكن الحرب اندلعت بالفعل ، ولم يعد التراجع ممكنًا .. هيَّا .. دعونا نكمل الطريق ، وعلى بركة الله .

وكان هذا فصل الختام ..

* * *

ظهر طابور الدبّابات الحديث ، من خلف جبل الرمل البعيد ، وراح يتقدّم فى بطء ، متخذًا نفس المسار ، الذى حدّدته المخابرات من قبل ..

ثلاثون دبّابة تتحرّك فى تشكيل ثنائى ، وتفصل كل دبّابة عن الأخرى مسافة ثلاثة أمتار ، عبر مسار متعرّج ، جعل المشهد كله أشبه بثعبان آلى هائل ، يشق طريقه عبر صحراء (سيناء) ..

وفى تلك اللحظة فقط ، بدأ هو يشعر بالقلق ..

كيف يمكنه أن يتصدى وحده لكل هذه الدبّابات ، مع تسليحها الحديث ؟..

كيف يمكنه أن يراوغها ، فى وضح النهار ، وأشعة الشمس تغمر المكان كله ، وتكشف مسيرة نملة على آفاق البصر ؟!..

أخذ يبذل قصارى جهده لدراسة الأمر كله ، وتقليب الأمور فى ذهنه ، محاولاً إيجاد حل منطقى للموقف ، ويراجع أسلحته ، و ...

وفجأة ، تكوّنت الخطة كلها فى رأسه ..

هكذا ، كطلقة رصاص ، أصابت تلافيف مخه ، ففجّرت فيها كل قدرات التخطيط والتدبير والإبداع ..

ودون أن يضيع ثانية واحدة ، انطلق يعدو بأقصى سرعته ، مستترًا بالمرتفعات الرملية ، ومتخذًا نفس المسار ، المفترض أن يتخذه طابور الدبّابات ..

وعندما بلغ منعطفًا خاصًا ، قفز إلى الجانب الآخر للمرتفع ، وراح يحفر الرمال فى سرعة مدهشة :

كان يعتمد اعتمادًا كاملاً على ثقل الدبابات ، الذى يجبرها على السير بسرعات بطيئة نسبيًا ، وهو يصنع مكمنًا وسط الرمال ، ثم يخفى جسده داخله ، ويضع سترته فوقه ، ويدفن نفسه تقريبًا ، ثم يجلس لينتظر ، وكيانه كله مشبّع بالحماس والحزم ..

ولم تمض دقائق معدودة ، بعد أن أخفى نفسه وسط الرمال ، حتى رأى ، عبر فرجة صغيرة ، طابور الدبابات يتجه نحوه ..

ودون مبرّر منطقى ، كتم أنفاسه تمامًا ، وهو يتابع طابور الدبّابات ، الذى عبر أمامه فى بطء ، فى تشكيل مزدوج ، بحيث

تستطيع كل دبّابة مراقبة زميلتها طوال الوقت ، من خلال مراقب يبرز نصفه من فتحة الدبّابة العلوية ..

وانتظر حتى عبره آخر زوج من الدبّابات ، ثم وثب من قلب الرمال ، وألقى واحدة من قنابله اليدوية بأقصى قوته ، نحو الجانب الأيمن للطابور ..

وانفجرت القنبلة وسط الرمال ..

ومع انفجارها ، التفتت العيون جميعها إلى موضعها ، وتوتر المراقبون ، وهم يبحثون عن مصدرها ..

وفى تلك اللحظة ، التى التفتت فيها كل العيون إلى اليمين ، وثب هو فوق جنزير آخر دبّابة إلى اليسار ، ومنه إلى برجها ، وأحاط عنق مراقبها بساعده الأيسر ، ثم انتزعه من مكانه بقوة فولاذية ، وهو يغمد خنجره فى قلبه ، قبل أن يلقيه بعيدًا ، ويقفز داخل الدبّابة ..

وكانت مفاجأة لطاقم الدبّابة الإسرائيلى ، شلّت حركتهم لحظة ، كانت كافية ليطلق هو رصاصاته ، ويعمل خنجره فيهم ، بكل ما اكتسبه من قوة ومهارة ، وكل ما تلقّاه من تدريبات مكثّفة مدروسة ..

ولم تمض ثوان معدودة ، حتى كانت له السيطرة الكاملة على تلك الدبّابة ..

ولكن وسط جيش من الدبّابات المعادية ..

لم يكن قد تعامل من قبل مع دبّابات مماثلة ، إلا أنه وزملاؤه الراحلون تلقّوا تدريبًا محدودًا على قيادة الدبّابات المصرية ، قبل بدء المهمة ..

ولم تكن الاختلافات كبيرة بين النوعين ..

يكفى أن يضغط هذه الدوّاسة ، ويدفع هذا الذراع ، ويجذب تلك الرافعة ، وستنطلق الدبّابة فى مسارها ..

وكانت المفاجأة الثانية للإسرائيليين ، عندما اندفع بدبّابته وسط الدبّابات الأخرى ، وراح يرتطم بها ، ويضربها فى تهوّر عنيف ، وعقله يستعيد معلوماته السابقة عن الدبّابات ، التى تؤكد له أن مدفع الدبّابة يفقد فاعليته مع الأهداف القريبة(*) ..

وتشتّت طابور الدبّابات واضطرب ، مع ذلك الهجوم المباغت الجنونى ، وخاصة عندما امتزجت الدبّابات بعضها بالبعض ، وصار من العسير تحديد الدبّابة المارقة ، وسط الارتباك الحادث ، فهتف قائد الطابور فى غضب :

ـ استعيدوا التشكيل ، وحاصروا الدبّابة التى سيطر عليها العدو ، واحموا وحدة الدفاع الجوى .

تلقّى جهاز اللاسلكى ، فى الدبّابة التى سيطر عليها ، ذلك الهتاف بالعبرية ، فترجمه عقله المدرّب بسرعة إلى العربية ، وأدرك أن الإسرائيليين سيبذلون جهدهم لحماية وحدة الدفاع الجوى الصاروخى ، التى تحمى وجودهم ، وأنه بمراقبة ما سيفعلونه ، سيمكنه تحديد موقعها بالضبط ..

ولكن السؤال هو : كيف يمكنه الوصول إليها بعد تحديدها ؟!..

(*) حقيقة .

وبسرعة ، راح عقله يعدّ الخطة الجديدة ، وهو يراقب تحركات الدبّابات ، عبر النافذة المستعرضة الصغيرة داخل دبّابته ..

ودون أن يبعد عينيه عن النافذة ، أخذ يبدل ثيابه العسكرية بزى أحد أفراد الطاقم ، حتى حدّد موقع وحدة الدفاع الجوى الصاروخى ، وهنا دفع باب برج الدبّابة ، ووثب خارجه ، وهو يصرخ بالعبرية :

ـ لن تهزمنا أيها المصرى .. لن تنجح أبدًا .

قالها ، وأردف قوله بإطلاق رصاصات المدفع الآلى داخل الدبّابة ، قبل أن يقفز منها إلى الأرض ، هاتفًا بالعبرية :

ـ إنه هنا .. المصرى هنا .

التفت الجميع إلى الدبّابة التى غادرها على الفور ، وانطلق وابل من النيران نحوها ، ولكن القائد الإسرائيلى انتبه إلى الخدعة ، فصاح عبر أجهزة اللاسلكى :

ـ لا تجعلوه يخدعكم .. إنه أحد جنود العدو .. اقتلوه .. اقتلوه بسرعة .

كان يعدو بأقصى سرعته نحو وحدة الدفاع الجوى ، عندما تناثرت الرصاصات من حوله كالمطر ، وشعر برصاصة تخترق ظهره ، وأخرى تغوص فى فخذه ، وثالثة تعبر لحم ذراعه اليسرى ، وتخرج مع خنجر من الألم ، من جانبها الآخر ..

ولكنه لم يتوقّف لحظة واحدة ..

إرادته الفولاذية تجاهلت كل جراحه وآلامه ، وجعلته يواصل طريقه ، ويقفز فوق الدبّابة التى تخفى وحدة الدفاع الجوى الصاروخى ، وقائد الدبّابات يصرخ :

ـ اغلقوا برج الوحدة .. لا تسمحوا له بالدخول ..

قفز أحد أفراد طاقم وحدة الدفاع الجوى الصاروخى ، محاولاً إغلاق البرج من الداخل ، إلا أن جندى الصاعقة المصرى كان الأسبق إلى البرج ، ففتحه فى قوة وعنف ، ودفع فوهة مدفعه الآلى عبره ، هاتفًا :

ـ كان ينبغى أن تغلقه من البداية يا رجل .

أصابته رصاصة رابعة فى كتفه الأيسر ، وحطّمت عظمة الكتف ، وهو يطلق نيران مدفعه الآلى على طاقم الوحدة الإسرائيلى ، ومزّقت خامسة جزءًا من لحم عنقه ، وهو يثب داخل الوحدة ، ويغلق باب البرج خلفه فى إحكام ..

كان غارقًا فى دمائه ، ويغوص فى بركة دم إسرائيلية ، وحوله جثث أربعة من القتلى ، ولكنه تغاضى عن كل هذا ، وهو يعيد ضبط جهاز اللاسلكى على موجة القيادة ، ويهتف :

ـ من (صاعقة - ١٤٤) إلى القيادة .. أنا فى الموقع (صفر + ٢) .. تمت السيطرة على وحدة الدفاع .. أرسلوا الطائرات لقصف طابور النمل .

جاء هتافه فى نفس اللحظة ، التى صرخ فيها قائد الطابور الإسرائيلى فى ثورة :

ـ أيها الأغبياء .. إنه فرد واحد .. كيف سمحتم له بهذا .. لقد احتلّ وحدة الدفاع الصاروخى .. تراجعوا على الفور .. اتخذوا مسار الطوارئ بسرعة .

وعلى الرغم من غضبهم وحنقهم ، استدار رجال الطابور بدبّاباتهم ، وانطلقوا يبتعدون عن مسارهم الأصلى ..

وكان هذا كفيلاً بإفساد العملية كلها ..

إفساها تمامًا ..

* * *

تلقّى قائد القوات الخاصة رسالة الشاب بدهشة عارمة ، وهتف فى حماس :

ـ اسمعوا هذا .. لقد سيطر وحده على الموقف ، وعلى وحدة الدفاع الصاروخى .

ارتفع حاجبا الرئيس فى دهشة ، وعضّ بأسنانه على غليونه ، فى حين هتف الوزير :

ـ مستحيل !.. رجل واحد فعل هذا !

أجابه قائد القوات الخاصة فى انبهار :

ـ لقد قالها سيادة الرئيس .. رجل واحد يمكنه أن يصنع فارقًا .. لست أدرى كيف فعلها ، ولكنه يؤكد سيطرته على وحدة الدفاع الصاروخية ، ويطالبنا بإرسال الطائرات لقصف الطابور كله .

قال الوزير فى توتر :

ـ هذا يبدو أقرب إلى الفخ .. ربما سيطر الإسرائيليون على الشاب ، ويجبرونه على إرسال هذه الرسائل ، حتى يستدرجوا طائراتنا ، وينسفوها بصواريخهم .

أجاب قائد القوات الخاصة فى حزم :

ـ رجالى يفضلون الموت ، على القيام بعمل واحد ، من شأنه تعريض أمن وطنهم للخطر .

قال الوزير فى إصرار :

ـ مازال الأمر يبدو لى أشبه بالفخ .

نفث الرئيس دخان غليونه ، وأشار بعصاه ، قائلاً :

ـ لن نخسر شيئًا على أية حال .

التفت إليه الجميع ، فتابع فى رصانة حاسمة :

ـ لو أن رسالة هذا الشاب صحيحة ، فهذا يعنى أنه بذل الكثير ، فى سبيل تحقيق ما فعله ، ومن الخسارة ، كل الخسارة ، أن يضيع عمله المدهش هذا هباءً .. دعونا نفترض أنه صادق ، ونرسل ثلاث مقاتلات فحسب لمواجهة الطابور .. سنربح الكثير لو أننا نجحنا فى تدميره ، قبل أن يقلب دفة الأمور على الجبهة ، ولن نخسر لو كان الأمر مجرّد خدعة ، سوى طائرة أو طائرتين ، وهذا مقابل عادل لمخاطرة كهذه ، قد تساعدنا على أن نربح معركتنا كلها .

ران الصمت على المكان لحظة ، قبل أن يقول الوزير فى حزم :

ـ أنا أتفق مع سيادة الرئيس .

أجابه قائد القوات الخاصة بسرعة :

ـ وأنا كذلك .

وهنا التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وأومأ برأسه مرتين ، قبل أن يقول :

ـ على بركة الله .. أرسلوا الطائرات ..

وكان له ما أراد ..

* * *

« من القيادة إلى (صاعقة - ١٤٤) .. حدّد موقع الطابور ، وابتعد عن المكان ، قبل أن تتم تصفيته .. »

جاءه النداء عبر جهاز اللاسلكى فى دبّابته ، فأجابه فى حزم :

ـ لا يمكننى الابتعاد .. الطابور يتخذ مسارًا مختلفًا ، لم يكن ضمن الخطة .. إننى أطارده فى إصرار .. لن يمكننى الابتعاد .. إننى الآن فى الموقع (صفر + ٣,٢ ش) .. أرسلوا الطائرات بسرعة .

هتف به مندوب القيادة :

ـ الطائرات فى طريقها إليك .. ابتعد بسرعة .. سيشتعل الجحيم بعد دقائق ، ولكن يمكنهم تمييزك وسط الدبّابات الأخرى .

أجابه بسرعة :

ـ دعك من عملية تمييزى هذه .. لو سمحت لهم بالابتعاد سأدخل فى مجال الإصابة ، وسيمكنهم نسفى تمامًا ، ثم اتخاذ مسار غير معروف .. من الضرورى أن أطاردهم على هذا النحو .. هذا يثير حنقهم وغضبهم ، ولكنهم لا يتصوّرون أننى سأطالبكم بقصفهم وأنا بينهم .. دعونا نستغل هذه الثغرة ، ونباغتهم بهجوم شامل ساحق .. إنهم ينحرفون الآن إلى الموقع (صفر - ٩,٦ ق) ..

عاد مندوب القيادة يقول فى إلحاح :

ـ إننا ننقل إرشاداتك إلى الطائرات .. حاول أن تتصل بقائد السرب الصغير مباشرة .. سنعطيك رقم موجته ، ولكن ابتعد بالله عليك ، قبل أن يتم قصف الطابور .

وهنا صرخ فى غضب :

ـ لقد غيّروا مسارهم مرة أخرى ، ويتجهون إلى الموقع (صفر + ٧ شر) .. إنهم يحاولون الفرار ، يا رجل .. لا بد من تواجدى بينهم .. من الواضح أن هذا يزعجهم بشدة ، فقد بدءوا الالتفاف حولى ، فى محاولة لتطويقى ومنعى من الحركة ، تمهيدًا لنسفى .. هيّا يا رجل .. استحث تلك الطائرات .. دعها تقصف الجميع .. هيا يا رجل .. لا تخاطر بمصير جيش كامل من أجل رجل واحد ، أرسلهم بسرعة .. هيّا .

نقل إليه جهاز اللاسلكى صوت تنهيدة عميقة ، أعقبه صوت مندوب القيادة ، وهو يقول :

ـ فليكن الله (سبحانه وتعالى) معك يا رجل .. الوداع .

انتهى الاتصال ، وأسرع هو ينتقل إلى موجة الطائرات ، هاتفًا :

ـ هنا (صاعقة - ١٤٤) .. الطابور يستقر فى الموقع (صفر + ٧ شر) .. هل تسمعنى ؟

أتاه صوت قائد السرب الصغير ، يقول :

ـ أسمعك يا (صاعقة - ١٤٤) .. نحن فى طريقنا إلى هناك .

فى نفس اللحظة ، التى تلقّى فيها هذا النداء ، كان قائد الطابور الإسرائيلى يهتف فى غضب :

ـ مادام هذا المجنون مصرّ على تعقبنا ، فدعونا نذيقه ما نجيد يا رجال .. سنشويه شيًا داخل وحدة الدفاع الصاروخى ، التى أحكم سيطرته عليها ..

وبناءً على أوامره ، برز بعض الجنود خارج دبّاباتهم ، وألقوا قنابل النابالم(*) على الوحدة ، فانفجرت تشعل النيران فى جنزيرها ، وفيما حولها ..

حدث هذا وهو يفقد سيطرته على وعيه تدريجيًا ، مع إصاباته المتعدّدة ، والدماء الغزيرة التى فقدها ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد انتشى جسده ، مع صوت الطائرات المصرية ، التى انقضّت على الطابور ، وصرخ :

ـ هيًا .. اضربوا يا رجال .. اقصفوا هؤلاء الأوغاد .

ومن حوله ، دوت الانفجارات عنيفة ، ممتزجة بصراخ الإسرائيليين ، ففتح باب برج الدبّابة ، ودفع جسده خارجها ، ووثب وسط النيران ، وتدحرج ..

ودوى انفجار أكثر عنفًا ، على مقربة منه ، فطار معه جسده لخمسة أمتار على الأقل ، وانغرست فيه عشرات الشظايا الملتهبة ، و ...

وانتهى كل شىء فى لحظات ..

حتى هو .

* * *

(*) قنابل النابالم : قنابل حارقة ، محظور استخدامها دوليًا ، وهى تحمل مادة جيلاتينية خاصة ، سريعة الاشتعال ، تلتصق بالأجسام والأشياء ، وتشتعل عند أدنى احتكاك ، أو ارتفاع درجات الحرارة ، ولقد استخدمها الإسرائيليون فى معظم حروبهم ، متجاهلين الأعراف الدولية والإنسانية .

٤ـ الفتى ..

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف ، من مساء اليوم الأوّل للحرب ، التى اندلعت منذ ثلاث ساعات ونصف الساعة فحسب ، وتعالى أزيز هليوكوبتر حربية مصرية ، تنطلق على ارتفاع منخفض ، فوق صحراء (سيناء) ، وبداخلها رجلان ، بخلاف قائدها ، الذى بدا شديد التوتر والاهتمام ، وهو يقول :

ـ الشمس توشك على الغروب ، ونحن نتوغّل أكثر وأكثر ، فى مناطق ما زال يسيطر عليها العدو .

أجابه أحد الرجلين فى حزم :

ـ واصل طريقك يا رجل .. إنها أوامر الرئيس نفسه .. لابد وأن نستعيد جثة ذلك الفتى بأى ثمن .

كان يبدو أكبر سنًا من صاحبه ، بذلك الشيب الذى خطط فوديه ، ولكن العجيب حقًا ، فى تلك الساعات الأولى من الحرب ، ومع التوتر الشديد على الجبهة ، أن كليهما لم يكن يرتدى زيًا عسكريًا ، وإنما كان كل منهما يرتدى حلة أنيقة ، ورباط عنق متناسقًا ، كما لو أنهما رجلا أعمال ، فى طريقهما لعقد صفقة خاصة ..

وربما كان هذا بالذات ما يستفز قائد الهليوكوبتر العسكرية ، وما جعله يقول فى شىء من الحنق والاستنكار :

ـ أتعنى أننا نقوم بهذه المجازفة لاستعادة جثة ؟!.. أى قول هذا ؟.. لقد مررنا فى طريقنا بمئات الجثث ، تفترش رمال (سيناء) ، فما الذى يميّز هذه الجثة بالذات .

أجابه الرجل فى صرامة :

ـ ليس هذا من شأنك .. نفذ الأوامر فحسب .

كان من الواضح أنه يمتلك سلطة ما ، تجبر الطيّار على طاعته ، فقد ابتلع لسانه فى سخط ، وانطلق بالهليوكوبتر نحو البقعة ، التى تم تحديدها له من قبل ، والتى تقع ـ نظريًا ـ فى منطقة سيطرة العدو ..

وفى خفوت ، غمغم الأصغر سنًا :

ـ سيادة المقدّم .. هل تعتقد حقًا أن الأمر يستحق المخاطرة ؟

صمت الرجل لحظة ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ـ مادامت هذه أوامر سيادة الرئيس ، فالأمر يستحق حتمًا .

وعاد إلى صمته لحظات أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ لقد أدّى هذا الفتى لوطنه خدمة لا تقدّر بثمن ، وليس أقل من أن نستعيد جثته .

سأله الشاب :

ـ لماذا ؟!.. لقد راجعت ملفه بنفسى .. إنه يتيم الأبوين .. ماتت أمه وهى تلده ، وكان أوّل الأبناء ، أى أنه بلا أخوة أو أخوات ، ثم مات والده بعد خمس سنوات ، دون أن يتزوّج بأخرى ، وتولّى خاله تربيته ، وظلّ أعزب لم يتزوّج ، حتى التحق الفتى بالقوات الخاصة ، ولقد مات ذلك الخال منذ أربعة أشهر ،

ولم يعد للفتى أى أقارب على قيد الحياة .. باختصار .. إنه وحيد تمامًا فى هذا العالم ، فمن يهتمّ باستعادة جثته ؟

أجابه الرجل فى حزم :

ـ (مصر) .

انبهر الشاب بالجواب ، وتراجع فى مقعده بحركة حادة ، وغرق مع الآخرين فى صمت ثقيل ، ساد المكان كله ، إلا من صوت مروحة الهليوكوبتر ، إلا أنه لم يلبث أن اعتدل ، وهمس :

ـ سيادة المقدّم (رفعت) .

التفت إليه المقدّم (رفعت) ، فأضاف :

ـ إننى أعتذر .

تطلّع إليه (رفعت) لحظة فى صمت ، ثم اعتدل ، مجيبًا بلهجته الحازمة دومًا :

ـ لا عليك يا (سمير) .

قالها وترك الصمت يستعيد سيطرته مرة أخرى ، حتى مال الطيّار بالهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ وصلنا إلى الهدف .

ومع قوله ، لاح طابور الدبّابات المحطّم ، وقد تناثرت تمامًا على رمال سيناء ، فى مشهد مهيب ، بدأ أشبه بلوحة رائعة ، تحمل اسم (اندحار أسطورة الجيش الذى لا يُقهر) .. وخفق قلب (سمير) فى رهبة ، عندما هبطت الهليوكوبتر وسط الحطام والدمار ، ووجد نفسه يهتف فى حماس :

ـ اللّه أكبر .. لقد كبدناهم خسائر فادحة بالفعل .

ابتسم (رفعت) فى شىء من السخرية ، وهو يغمغم :

ـ هل انتبهت لهذا الآن فحسب ؟

أشار (سمير) بيده ، هاتفًا :

ـ هل سنعثر عليه ، وسط كل هذا ؟

أجابه (رفعت) بحزمه المعهود ، وهو يقفز خارج الهليوكوبتر :

ـ سنبذل قصارى جهدنا .

هتف الطيَّار بشىء من الحدة :

ـ المهم أن تسرعا ، فالشمس بدأت تغوص فى الأفق ، ولست أدرى متى يأتى الإسرائيليون .. إنهم يستغلون فترة الليل دائمًا ، لاستعادة جثث قتلاهم .

قال (رفعت) ، وهو يبتعد :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الشأن يا رجل .. لن يأتى الإسرائيليون قبل ساعتين على الأقل .

هتف الطيَّار :

ـ وكيف يمكنك أن تجزم بهذه الثقة ؟

أجابه فى صرامة :

ـ لأن ما أعرفه عن الإسرائيليين يفوق ما درسته أنت عنهم بعشر مرات على الأقل .

انعقد حاجبا الطيَّار ، وهو يقول فى حدة :

ـ من يظن نفسه ؟

ابتسم (سمير) ، وربَّت على كتفه ، وهو يغادر الهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ إنه واحد من أفضل من عرفت فى عالم المخابرات يا رجل ، وصدقنى .. ليس من السهل أن تلتقى فى حياتك كلها بواحد مثله .

هتف الطيَّار :

من المخابرات ؟!.. آه .. ألهذا يتصوَّر أنه فوق الجميع ؟

ابتسم (سمير) مرة ثانية ، وهو يبتعد عن الهليوكوبتر دون تعليق ، وانضمّ إلى (رفعت) ، الذى أشار إلى الدبابات المحطَّمة ، قائلاً :

ـ ابحث عن وحدة الدفاع الصاروخى .. لقد أرسل آخر رسائله من داخلها ، قبل أن يقصفها رجالنا .. أعتقد أننا سنجد جثته داخلها ، أو بالقرب منها على الأقل .

انطلقا يفحصان الحطام فى اهتمام بالغ ، والطيَّار يتطلَّع إلى ساعته فى توتر وقلق ، حتى هتف (سمير) :

ـ ها هى ذى .. لقد عثرت عليها .

أسرع إليه (رفعت) ، وألقى نظرة على الوحدة ، التى احترقت عن آخرها ، وتحطَّم جزء منها ، بفعل أحد الصواريخ المصرية ، وقال :

ـ يا للبشاعة !.. لو أنه ظلّ داخلها ، فسيكون من المستحيل أن نستعيد منه ما يكفى لملء فنجان من الشاى .

قال (سمير) :

ـ لقد قصفها رجالنا ، فانفجرت كل صواريخها داخلها .. إنها محطَّمة تمامًا ، على عكس الدبَّابات الأخرى .

قال (رفعت) فى صرامة ، لم يكن لها ما يبرّرها :

ـ هذا أمر طبيعى .

ثم قفز فوق الوحدة ، وألقى نظرة داخلها بمصباحه اليدوى ، قبل أن يقول :

ـ عندى هنا كومة من الأشلاء المحترقة .. سيحتاج الأمر إلى ملقط ، لأستخرج بقايا ذلك الفتى المسكين .

ودون أن يبالى بحلته الأنيقة ، وثب داخل الوحدة ، وراح يفحص البقايا والأشلاء فى اهتمام بالغ ، والطيّار يهتف من بعيد :

ـ الشمس غربت بالفعل .

تجاهله (رفعت) تمامًا ، وهو يواصل فحص تلك الأشلاء الآدمية ، التى تناثرت فى كل مكان ، واحترقت على نحو بشع ، وامتزجت بالكثير من الدماء ، ثم قال فى توتر :

ـ إنه ليس هنا ؟

قال (سمير) فى دهشة :

ـ وكيف أمكنك الجزم ؟

أجابه وهو يقفز خارج الوحدة :

ـ هذه الأشلاء تخصّ ثلاث جثث ، ولقد عثرت بينها على ثلاث سلاسل ، تحمل بيانات أصحابها(*) ، وهذا يعنى أنه ليس هنا .

ثم راح يدير عينيه فى المكان ، مع ضوء مصباحه اليدوى ، والطيّار يقول فى عصبية :

(*) فى الحروب يعلّق الجنود فى رقابهم سلسلة ، تحوى شريحة معدنية ، دوّنت عليها كل بياناتهم ، حتى يمكن تعرف جثثهم عند الحاجة .

ـ ضوء مصباحك هذا يمكن رؤيته من مسافة عشرة كيلومترات (*) .. هل تتعمّد قتلنا أم ماذا ؟

ولكن (رفعت) تجاهله مرة أخرى ، وهو يهتف :

ـ انتظر يا (سمير) .. هناك .

قالها ، وانطلق يعدو ، دون أن ينتظر رد فعل صاحبه ، حتى بلغ ذلك الموضع ، الذى سقط فيه الشاب ، وانحنى يجذب السلسلة المعلّقة برقبته ، وألقى نظرة على البيانات المدوّنة عليها ، على ضوء مصباحه ، قبل أن يهتف فى حماس :

ـ إنه هو .. إنه هو يا (سمير) .

أجابه (سمير) فى انفعال :

ـ عظيم .. لقد عثرنا عليه بأسرع مما كنا نتوقّع .. هيّا نحمله إلى الهليوكوبتر ، ونغادر هذا المكان ، قبل أن يصاب الطيّار بانهيار عصبى .

أسرع (رفعت) يدفع كفيه تحت أبطى الشاب ، وهو يقول :

ـ انظر إلى الدماء التى تغطى جسده .. لقد أصيب الفتى بشدة ، ولكنه واصل مهمته ، على الرغم من هذا .. هل رأيت شجاعة تفوق شجاعته .. يا للخسارة !.. كم كنت أتمنى أن أشدّ على يده .

حمل (سمير) ساقى الشاب ، وهو يتمتم :

ـ أعتقد أننى أشاركك أمنيتك هذه يا سيادة المقدّم ، فلو ...

انتفض جسده بغتة ، عندما ندت من الجسد المثخن بالجراح حركة انقباضية محدودة ، وسعل مرة واحدة ، وصرخ (رفعت) :

(*) حقيقة ..

ـ مستحيل !.. إنه حى .. يا للمعجزة !.. إنه حى .. كل هذه الإصابات لم تنجح فى قتله .. إنها معجزة بحق .

ثم انطلق يعدو نحو الهليوكوبتر ، حاملاً جسد الشاب ، و (سمير) يعاونه فى آلية ، واستقبلهما الطيّار بصيحة استنكار ، وهو ينظر إلى الزى الممزّق ، فوق جسد الشاب :

ـ إسرائيلى ؟!.. هل فعلنا كل هذا ، لنستعيد جثة إسرائيلى ؟!

صاح به (رفعت) فى صرامة ، وهو يضع الشاب داخل الهليوكوبتر .

ـ هيّا يا رجل .. انطلق بأقصى سرعة ، وعد بنا إلى (القاهرة) .. ربما كنا سعداء الحظ ، واستطعنا إنقاذه .. هيّا .

اتسعت عينا الطيّار فى ذهول ، وهو يهتف :

ـ إنقاذه ؟!.. هل تعنى أنه ...

قاطعه (رفعت) ، بكل ما يموج فى صدره من انفعالات :

ـ نعم يا رجل .. إنه حى .. أسرع بالله عليك .. أسرع .

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى كانت الهليوكوبتر تنطلق عائدة إلى (القاهرة) ، وهى تحمل الدليل ..

الدليل على قدرة الخالق (عزّ وجلّ) ..

* * *

« أنا أوافقك أيها المقدّم .. إنها معجزة ... » ..

قالها كبير الجرّاحين ، فى المستشفى العسكرى فى (المعادى) ، وهو ينتزع قفازى الجراحة المطاطيين من يديه ، قبل أن يستطرد ، والدهشة لم تفارقه بعد :

ـ لقد أخرجنا من جسده ثلاث رصاصات ، وأكثر من دستتين من الشظايا ، وكان قد فقد نصف دمائه تقريبًا ، وعلى الرغم من هذا فقد ساعدته بنيته القوية ، وإرادة اللّه (سبحانه وتعالى) على البقاء .. إنها أغرب حالة شاهدتها فى حياتى كلها .

أومأ (رفعت) برأسه موافقًا ، وهو يغمغم :

ـ هذا صحيح .. لقد كتب له اللّه (سبحانه وتعالى) البقاء ، وأنا واثق بأن هذا كان لحكمة لا يعلمها سواه .

سأله الطبيب ، وهو يغسل يديه :

ـ أهناك من يهتمّ ببقائه على قيد الحياة ؟.. أعنى أن زوجة أو أبناء مثلاً .

هزّ (رفعت) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ بل ليس له أى أقارب على الإطلاق ..

رفع الطبيب حاجبيه فى دهشة ، وهو ينتقل إلى ما خلف مكتبه ، ويشعل سيجارته ، قائلاً :

ـ عجبًا !.. للّه (سبحانه وتعالى) فى خلقه شئون .. عشرات الآباء والأزواج يموتون بسبب رصاصة أو شظية واحدة ، وذلك الفتى يحيا ، على الرغم من كل إصاباته ، دون أن يكون هناك من يهتمّ بأمره .. سبحان اللّه .

صمت (رفعت) لحظة ، ثم سأله :

ـ متى سيستعيد لياقته فى رأيك ؟

حدّق الطبيب فى وجهه لحظة بدهشة ، قبل أن يقول :

ـ لياقته ؟!.. بل قل : متى يستعيد وعيه يا رجل ؟.. من الواضح أنك لا تدرك حقيقة الموقف جيدًا .. صحيح أن هذا الشاب لم يمت ، ولكن هذا لا يعنى أنه سيعود كما كان .

انعقد حاجبا (رفعت) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟

نفث الطبيب دخان سيجارته ، قبل أن يجيب :

ـ لقد كانت إصاباته بالغة ، وفقد الكثير من دمائه ، وقضى ما يقرب من الثلاث ساعات دون علاج ، كما أن قوة الانفجار أصابت مخه بارتجاج عنيف ، مع قصور فى الأكسجين ، و ...

قاطعه (رفعت) ، فى شىء من الضيق :

ـ لست أفهم الكثير من النواحى الطبية .. دعنا نقفز إلى النتائج مباشرة ، دون المرور بالتفاصيل .

ابتسم الطبيب ، وهو يقول :

ـ آه .. كدت أنسى طبيعتك المتبرّمة .. فليكن يا (رفعت) بك .. النتيجة النهائية هى أن هذا الشاب سيصاب بتلف ما ، فى خلايا المخ .. لا يمكننا تحديد هذا بشكل قاطع الآن ، فلا توجد وسيلة علمية متاحة لهذا(*) ولكنه لن يعود قط إلى ما كان عليه .

بدا الضيق على وجه (رفعت) ، وهو يسأل :

ـ وما نوع هذا التلف بالتحديد ؟.. هل سيصاب بنوع من الشلل مثلاً ؟

(*) كان هذا قبل اختراع أجهزة الرسم المقطعى للمخ ، وأجهزة فحص الرنين المغنطيسى ، التى يمكنها الآن تحديد مثل هذه الإصابات بدقة ممتازة .

هزّ الطبيب كتفيه ، وهو ينفث دخان سيجارته مرة أخرى ، مجيبًا :

ـ ربّما .. أو ربّما يصاب بضعف فى السمع ، أو البصر ، أو عدم توافق فى حركة الأطراف ، وربما يفقد ذاكرته ، أو قدرته على التركيز .. لا أحد يدرى .

لوّح (رفعت) بيده ، ليطرد سحب الدخان ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ هذه السجائر ستقتلك يومًا .

حدّق الطبيب فيه بدهشة ، قبل أن يبتسم مرتبكًا ، ويغمغم :

ـ عجبًا !.. المفروض أننى الطبيب هنا ، وأننى المسئول عن تحذير الناس من أضرار التدخين ، ولكنك تعكس الأمور كالمعتاد .

ثم أطفأ السيجارة ، وهو يسحقها بسبّابته وإبهامه فى المنفضة ، مستطردًا :

ـ المهم أن أحدًا لا يمكنه التنبؤ مسبقًا بما سيكون عليه الشاب ، عندما يستعيد وعيه .

سأله (رفعت) :

ـ ومتى يفعل ؟

عاد الطبيب يهزّ كتفيه ، مجيبًا .

ـ لا أحد يدرى أيضًا .. إصاباته تركت أثرًا عنيفًا فى جسده وعقله .. ربما يعود إلى وعيه بعد يوم ، أو أسبوع .. أو حتى عشر سنوات .. هذا أمر نجهله تمامًا .

بُهِتَ (رفعت) للجواب ، وهتف مستنكرًا :

ـ عشر سنوات ؟!.. أمن الممكن أن يسقط شخص ما فى غيبوبة عميقة ، لعشر سنوات متصلة ؟!

أشار إليه الطبيب ، قائلاً :

ـ توجد حالات مسجّلة ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ظلّت اثنى عشر عامًا بهذه الصورة ، وهم يبقون عليها بوسائل تنفس وتنظيم قلب صناعية ، ويداومون على تليين مفصلاتها وعضلاتها ، فى أثناء فترة الغيبوبة ، عبر برنامج علاج طبيعى مدروس ، بحيث يمكنها استعادة لياقتها ، خلال فترة قصيرة ، إذا ما استعادت وعيها ، ولا تصاب بالتيبس الكامل ، من جراء الرقاد لفترات طويلة(*) .. صحيح أن الشاب يمكنه التنفس بصورة طبيعية ، وقلبه على ما يرام إلى حد كبير ، ولكنه سيحتاج بالطبع إلى برنامج العلاج الطبيعى ، حتى يستعيد وعيه ، بعد فترة لا يعلمها إلا الله (سبحانه وتعالى) .

صمت (رفعت) لحظات فى أسى ، ثم هزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ يا للخسارة !.. ليس من السهل أن تجد شابًا كهذا .. لقد أدّى واجبه ببسالة مدهشة ، وإرادة فولاذية لا تنصهر ، وعندما حانت اللحظة ، التى يتراجع عندها أشجع الرجال ، وقف هو كالطود ، وقاتل كالأسود ، واتخذ قرارًا نادرًا بالتضحية بحياته ، فى سبيل وطنه .. إنه طراز نادر بالفعل ، يؤسفنى أن تخسره (مصر) .

(*) حقيقة علمية .

تطلّع إليه الطبيب لحظات ، وقد انتقل بكلماته إلى منطقة تـأثّر وانفعال كبيرة ، ثـم همس ، وكأنـه يخشى أن يفسد صوتـه رهبـة الموقف كله :

ـ ربما لم تخسره بعد .. من يدرى ؟

التفت إليه (رفعت) فى حركة حادة ، وظلّ يحدّق فى وجهه لحظات فى صمت ، قبل أن ينعقد حاجباه ، ويقول فى حزم :

ـ نعم .. من يدرى ؟..

وفى تلك اللحظة ..

فى تلك اللحظة بالذات ، تكوّنت الفكرة فى رأسه ..

ويالها من فكرة !..

* * *

« فكرة مجنونة للغاية يا (رفعت) .. »

هتف زميله المقدّم (نسيم) بالعبارة ، وهو يلوّح بيده فى حدة ، قبل أن يستطرد :

ـ كدت أنفجر غيظًا ، وأنا أسمعك تشرحها للسيّد المدير !.. كيف تقرّر تجنيد شخص فاقد الوعى ، فى صفوف المخابرات العامة ؟!.. إنها سابقة عجيبة للغاية ، وغير مفهومة .

أجابه (رفعت) فى هدوء :

ـ ولكن المدير تفهّم الموقف ، واستوعبه على نحو جيّد .. إننا لن نخسر شيئًا ، إذا ماقرّرنا ضمّ هذا الشاب لصفوفنا ، فكل ما فعلته هو أن حصلت على موافقة مبدئية فحسب ، ولا أحد يمكنه أن يلزمنا بقبوله أو رفضه ، إذا ما فكّرنا فى التراجع .. كل ما فى

الأمر هو أننا سننتظر ما ستسفر عنه الأمور ، فلو استعاد ذلك الشاب وعيه وكفاءته ، سيكون من الخسارة ، كل الخسارة ، ألا ينضمّ مثله إلينا ، أما لو لم يعد إلى ما كان عليه ، فسنتولاّه برعايتنا ، كما لو كان أحد رجالنا ، الذين يصابون فى أثناء العمل .

قال (نسيم) فى عصبية :

ـ لو أن الأمر اقتصر على هذا ، لما وجدت منى استهجانًا أو معارضة ، ولكنك تمضى بالأمور إلى حد يثير الحنق .. لقد أوردت اسم الشاب ، ضمن قائمة شهداء الحرب ، وأغلقت بهذا سجله فى عالم الأحياء ، ثـم إنـك أخفيت اسمه عن الأطباء والعاملين بالمستشفى العسكرى ، وكأنك تتعمّد تحويله إلى شخص غامض .. رجل خفى .. فاى .

انعقد حاجبا (رفعت) ، عند سماعه الكلمة الأخيرة ، وسأل فى دهشة :

ـ ما معنى (فاى) هذه ؟

لوّح (نسيم) بسبّابته ، وهو يجيب :

ـ (فاى) .. ذلك الرمز المعروف ، فى الرياضة الحديثة ، والذى يشير إلى القيمة الخالية .. مجرّد قيمة خالية .. إنها لا تساوى حتى صفرًا ؛ لأن الصفر قيمة محدودة فى عالم الرياضيات .. ألم تسمع عن (فاى) من قبل يا رجل .. ذلك الرمز الذى يمثل شبه دائرة يقطعها خط مستقيم رأسى .. ألم تر هذا الرمز من قبل قط ؟

صمت (رفعت) تمامًا ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يردّد فى خفوت :

ـ (فاى) .. القيمة الخالية .. نعم .. هذا يناسب الأمر تمامًا .

تطلّع إليه (نسيم) فى دهشة ، قائلاً :

ـ يناسب أى أمر ؟

أجابه (رفعت) فى حماس ، وهو يلتقط ملفًا من فوق مكتبه :

ـ لقد حللت مشكلة عويصة يا رجل .. كنت أفكّر فى الاسم الكودى ، الذى يناسب العميل الجديد ، عندما يستعيد وعيه ، وينضمّ إلى صفوفنا ، وهأنتذا تلقيه عن لسانك ، دون أن تدرى .. نعم .. أى لقب يناسب شخصًا يعتبره العالم كله فى عداد الأموات .. شخص يحمل هوية جديدة ، ويمتلك حياة جديدة .. أهنئك يا رجل .. لقد ألهمتنى الحل .

حدّق فيه (نسيم) مرة أخرى فى دهشة ، وهو يلتقط قلمه ، ويرسم به شكلاً بيضاويًا يقطعه خط رأسى مستقيم ، على الملف الخاص بالشاب ..

رمز القيمة الخالية (فاى) ..

وكانت هذه هى البداية ..

البداية الحقيقية .

* * *

٥ ـ العودة ..

السابع من أبريل ، عام ١٩٧٤ م ..

تسلّم الدكتور (عاطف) عمله للمرة الأولى ، فى قسم الرعاية المركّزة ، فى مستشفى المعادى العسكرى ، وهو يحمل على كتفيه رتبة ملازم أوّل ، فور عودته من الجبهة ، ومنذ لحظاته الأولى ، جمع الملفات الطبية لكل مرضى القسم ، وراح يراجعها فى اهتمام ، ليكوّن فكرة مناسبة عن المرضى الذين يضمّهم القسم ، قبل أن يتعامل معهم مباشرة .

كان كل شىء ، بالنسبة إليه ، يسير على ما يرام ، حتى وقع فى يده ذلك الملف ..

مجرّد ملف عادى المظهر ، مثل كل الملفات السابقة ، ولكنه مكتظ على نحو عجيب ، بعشرات التقارير ، والفحوص ، والاستشارات ، كما لو أن صاحبه يلقى رعاية خاصة للغاية ، بوساطة عدد من أكبر أطباء المستشفى ، وأكثرهم خبرة وتخصصًا ، فى مختلف المجالات الطبية ، وفروع التحاليل والفحوص والمعامل ..

والمفروض ، طبقًا للملف ، أن ذلك المريض فاقد الوعى ، منذ السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، وعلى الرغم من هذا فقد أجريت له ثلاث عمليات جراحية كبرى .. واحدة لإخراج بعض الرصاص والشظايا من جسده ، والثانية لتصفية تجمّع دموى بين

خلايا المخ والجمجمة ، والثالثة جراحة تجميلية ، لتغيير بعض ملامحه ، التى مزّقها انفجار ما ..

وليس هذا كل ما فى الأمر ..

إنهم يخضعونه لكل الفحوص اللازمة والضرورية ، وغير الضرورية ، أسبوعيًا ، ويقوم طاقم خاص بعمل علاج طبيعى منتظم له ، فى أثناء غيبوبته ؛ للحفاظ على نشاط عضلاته ، وقدرتها على الحركة والاستجابة ..

ثم إنه يرقد فوق فراش خاص ، تم استيراده خصيصًا من أجله ، ليتموّج بصفة منتظمة ، على وسادة هوائية ، منعًا لإصابته بقرح فراش أو التهابات مزمنة ..

وفى دهشة كاملة ، هتف الدكتور (عاطف) :

ـ هناك خطأ ما حتمًا .

وألقى الملفات كلها على مكتبه ، وحمل هذا الملف بالذات ، وهو يندفع نحو الممرضة الأولى للقسم ، قائلاً :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

التفتت إليه فى هدوء ، تسأله :

ـ ماذا هناك ؟

لوّح بالملف فى وجهها ، قائلاً فى شىء من العصبية :

ـ هل قرأت هذا الملف مرة واحدة ؟!.. ألديك تبرير منطقى لما يفعلونه لهذا المريض بالذات ؟!.. إن ميزانية الإنفاق عليه ، تعادل تقريبًا ميزانية القسم كله .. من هو بالضبط ، حتى يحظى بكل هذا ؟!.. ابن أحد المسئولين ، أم وزير حربية سابق ؟!

استقبلت ثورته بهدوء عجيب ، وكأنها اعتادت هذا الموقف ، من كل طبيب جديد ، وأجابت فى بساطة :

ـ ليست لدى أى أجوبة .

صاح فى حنق :

ـ ما الذى يعنيه هذا الجواب السخيف ؟.. لقد قضى ذلك المريض فى غيبوبته ما يزيد على خمسة أشهر .. كيف تجهلين كل شىء عنه ، طوال هذه الفترة ؟!

واصلت حفاظها على أعصابها ، وهى تجيب :

ـ لست وحدى من يجهل كل شىء عنه .. لو أنك انتبهت إلى الملف جيدًا ، للاحظت أنه لا يحمل أى اسم .. فقط رقم (١٤٤) .. وهذا الرقم لا يعنى أى شىء على الإطلاق ، بالنسبة لنظم المستشفى ، ثم إنه غير مسموح على الإطلاق بوجود أى زائرين ، سوى شخص واحد ، ممشوق القامة ، صارم الأسلوب والملامح ، أشيب الفودين ، يزوره بصفة منتظمة إلى حد ما ، بصحبة مدير المستشفى نفسه لدقائق معدودة ، ثم ينصرف دون أن يتحدّث إلى أحد ، حتى أننا لا نعرف صوته .

ذابت ثورته فى أعماق دهشته ، وهو يعيد التطلّع إلى الملف ، وانتبه لأوّل مرة إلى الرقم الصغير على غلافه ، ورقم الهاتف المدوّن تحته ، فسألها فى حيرة :

ـ وماذا عن رقم الهاتف ؟

أجابته بسرعة وهدوء :

ـ إننا لم نستخدمه قط ، منذ أتوا به إلى هنا .. ولكن الأوامر تحتّم الاتصال بالرقم فورًا ، إذا استعاد ذلك المريض وعيه ، أو جزءًا منه ، فى أية لحظة من الليل أو النهار .

بهره الغموض المحيط بالموقف كله ، ففغر فاه لحظات ، وهو يحدّق فى الملف ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ عجبًا !!

ثم رفع عينيه إلى الممرضة ، وسألها فى صوت خافت ، وقد تلاشت ثورته تمامًا :

ـ وأين المريض الغامض هذا ؟

أشارت بيدها إلى حجرة مغلقة ، فى نهاية الممر ، مجيبة :

ـ هناك .

اتجه فى آلية إلى تلك الحجرة ، وفتحها فى شىء من الحذر ، وكأنه يتوقّع أن يقفز شبح فى وجهه فجأة ، ولم يكد يلقى نظرة على الشاب ، الراقد فوق الفراش المتموّج ، وقد أحاطت به أحد أجهزة الفحص والمراقبة ، فى تلك الفترة ، حتى ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهتف :

ـ إنه شاب صغير .

أجابته الممرضة فى خفوت ، وهى تتطلّع إلى الشاب فى شىء من العطف والحنان والحسرة :

ـ نعم .. ووسيم أيضًا .. إننى أقوم برعايته فى فترة عملى ، وأحلق لحيته باستمرار ، وأعاون طاقم العلاج الطبيعى ، و ...

لاحظت فجأة أن الطبيب ينظر إليها فى دهشة ، فارتبكت وتنحنحت ، مكملة :

ـ إننى أقوم بعملى .

ظلّ الطبيب يتطلّع إليها لحظة فى صمت ، قبل أن يبتسم ، قائلاً فى خبث :

ـ حقًا ؟!

تضرج وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت أكثر ، ولكنه أشاح بوجهه عنها ، مكملاً بسرعة :

ـ إنه يستحق الشفقة بالفعل .

ودلف إلى الحجرة فى صمت ، وراح يدير عينيه فى كل ما تحويه ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ يبدو أننى لم أحسن تقدير الموقف .. إنهم لا ينفقون عليه ما يساوى ميزانية القسم كله فحسب .. إنهم ينفقون عليه ثلاثة أضعاف هذا المبلغ على الأقل .

اقتربت منه الممرضة ، وهى تقول فى خفوت :

ـ لا ريب أنهم يرون أنه يستحق هذا .. ثم إن كل هذه الأجهزة ستصبح ملكًا للقسم ، عندما يستعيد وعيه .

أومأ برأسه بلا معنى ، قبل أن يتمتم :

ـ هذا لو استعاد وعيه ..

انفرجت شفتا الممرضة ، لتنطق بشىء ما ، عندما التقطت أذناها فجأة تأوهات خافتة للغاية ، فتجمّد جسدها كله ، ثم استدارت فى حدة إلى الشاب ، وأطلقت شهقة عنيفة ، وهى تهتف :

ـ ربّاه !.. انظر يا دكتور .

التفت الدكتور (عاطف) بسرعة ، إلى حيث تنظر ، ثم ارتدّ فى عنف ، كمن أصابته صاعقة ..

كل هذا لأن الشاب فتح عينيه ، وتطلّع إليهما بنظرة خاوية ، وتحرّكت شفتاه فى بطء ، وكأنه يحاول نطق شىء ما ، ولم يخرج منهما سوى همهمة خافتة غير مفهومة ، إلا أنها كانت كافية لتلتقى نظرات الطبيب والممرضة فى سرعة ، وتقفز إلى رأسهما فكرة ..

فكرة واحدة مشتركة ..

* * *

لم يكن ذلك الصباح عاديًا أبدًا ، بالنسبة للمقدّم (رفعت) .

لقد تلقّى عشرات التقارير والمعلومات ، من عدد من العملاء السريين ، وراح يطالعها كلها بكل الاهتمام ، قبل أن يدمجها فى تقرير واحد ، تتم دراسته فى أثناء الاجتماع اليومى ..

ولقد انهمك فى هذا العمل حتى النخاع ، ولم يفارق مكتبه لحظة واحدة ، منذ الخامسة والنصف صباحًا ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتفه الخاص ..

والعجيب أنه ، وهو المدرّب على مواجهة الخطر ، والمعتاد على خوض أصعب المواقف والمعارك ، وتجاوز أعقد الظروف ، انتفض فى عنف ، مع الرنين المباغت ، وقفز تقريبًا من مقعده ، قبل أن يختطف السمّاعة ، ويقول فى حدة :

ـ من المتحدّث ؟

أتاه صوت الدكتور (عاطف) ، وهو يقول فى توتر مرتبك :

ـ لقد استعاد وعيه .

من الممكن أن يعتبر البعض أن هذه العبارة مبهمة إلى حد كبير ، ولكن (رفعت) فهمها على الفور ، ووثب واقفًا ، وهو يجيب فى حزم :

ـ سأحضر على الفور .

لم يدر بعدها كيف ارتدى سترته ، ولا كيف قاد سيارته بهذه السرعة ، من (حدائق القبة) إلى (المعادى) ، ولكنه وجد نفسه أخيرًا داخل حجرة الشاب ، الذى لم يختلف كثيرًا عما كان عليه فى غيبوبته ، باستثناء ما كانت عليه عيناه ، اللتان راحتا تتنقلان من وجه (رفعت) إلى وجه أخصائى المخ والأعصاب ، الذى يقول فى ارتياح واضح :

ـ عظيم .. لم أكن أتوقّع أن يستعيد وعيه أبدًا .. لقد فعلها أخيرًا .. حمدًا لله .

أطلّ شىء من خيبة الأمل ، من صوت (رفعت) ، وهو يقول :

ـ أهذا ما تطلقون عليه استعادة الوعى ؟!.. إنه أشبه بجثة أوصلوها بتيار كهربى ، لتحرّك عينيها فقط .

ابتسم الطبيب ، وهو يقول :

ـ إنها البداية فحسب .. لا تنس أنه رقد فاقد الوعى لفترة طويلة ، وليس من السهل أن يستعيد المخ قدراته ، وسيطرته على الجسد ، بعد فترة كمون طويلة .

سأله (رفعت) فى اهتمام :

ـ أتعنى أنه سيفعل ، مع مرور الوقت ؟

أجابه الطبيب فى حماس :

ـ بالطبع .. سيتحسَّن هذا الشاب تدريجيًا ، ويستعيد قدراته البشرية خطوة فخطوة ، مع مداومة العلاج ، والمواظبة على جلسات العلاج الطبيعى .. صدقنى .. لن تمضى ستة أشهر ، حتى يستعيد قدرته على المشى والكلام .

هتف (رفعت) :

ـ المشى والكلام ؟!.. أهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه ؟!

صمت الطبيب لحظة ، ثم مطَّ شفتيه ، قائلاً :

ـ نحن لم نعرف بعد أى أثر تركته الإصابة فى مخه ، ولكن كل ما نستطيع معاونته فيه ، هو أن نعيد إليه قدرته على المشى والكلام ، أما ما عدا هذا ، فهو يتوقَّف على عاملين .

سأله (رفعت) فى اهتمام بالغ :

ـ وما هما ؟

أشار الطبيب بسبَّابته ووسطاه ، قائلاً :

ـ الزمن ، وإرادة الشفاء من أعماقه .

أومأ (رفعت) برأسه متفهِّمًا ، ثم أطلَّت من شفتيه لمحة ابتسام ، وهو يجيب فى حسم :

ـ يمكننا إذن أن ننتظر .

وفى أعماقه ، عاد الأمل ينتعش ..

وبشدة ..

* * *

« كيف حاله الآن ؟!.. »

ألقى المقدّم (نسيم) السؤال على زميله (رفعت) ، داخل حجرة مكتب هذا الأخير ، الذى ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ أفضل من ذى قبل .. إنه يتناول طعامه بنفسه ، ويمكنه السير عبر الممر جيئة وذهابًا ، دون أن يستند إلى أحد .

مطَّ (نسيم) شفتيه ، وعقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ أيبدو لك هذا كافيًا ، بالنسبة لشخص يتم تجنيده ؟!

صمت (رفعت) لحظات ، ثم أجاب فى جدية :

ـ الشاب سيتحسَّن يا (نسيم) .. لقد أكَّد لى الأطباء هذا .. بل إنه تجاوز بالفعل كل توقعاتهم ؛ فالفحوص كلها تشير إلى أن إصابة مخه لم تفقده أيًا من توافقاته العصبية ، أو حواسه المباشرة ، وربما حدثت معجزة جديدة ، وتجاوز الأزمة كلها دون خسائر .

غمغم (نسيم) فى سخط :

ـ هذا ما سيتضح مع الزمن .

أشار (رفعت) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. حل المشكلة كلها يكمن فى الزمن .. امنحه ما يكفى من الوقت ، وأنا واثق من أننا لن نندم أبدًا .. صدقنى يا (نسيم) .. أهم وأخطر ما فى الأمر ، هو أن تجد شخصًا يصلح للعمل معنا ، ويضيف إلينا الجديد ، وقد تقضى عمرك كله ، وأنت تبحث عن مثل هذا الشخص فلا تجده .. ماذا يضيرنا إذن لو أنفقنا

جزءًا من العمر ، لنفوز بشخص ، نعلم جيدًا أنه يمتلك كل الصفات المنشودة ، ولا يعوزه إلا الوقت .. فقط الوقت ؟!

صمت (نسيم) لحظات ، وكأنه يستوعب الموقف كله ، ثم قال :

ـ أنت على حق .. لقد كنت متسرّعًا ومخطئًا .

ابتسم (رفعت) ، قائلاً :

ـ أتدرى ؟.. هذا أعظم ما فيك يا صديقى .. تمتلك قلب الأسد ، وعناء الدنيا كلها ، ولكنك تحمل وسط هذا شجاعة كافية للتراجع ، إذا ما تبين لك خطأ رأيك .. إنها صفة نادرة الوجود بحق .

مطّ (نسيم) شفتيه ، ولوّح بكفه ، قائلاً :

ـ لا تضخم الأمور .

ثم تنهّد ، مستطردًا :

ـ وعلى أية حال ، يبدو أننى لن أعرف نتيجة هذا العمل .

سأله (رفعت) فى قلق :

ـ ما الذى تعنيه ؟!

هزّ كتفيه ، وابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ لقد أصبحت رئيس مكتبنا فى (نيويورك) .

هتف (رفعت) :

ـ ألف مبروك يا رجل .. هذا يعنى أنك ستواجه الأمريكيين هذه المرة .

ثم أمسك كتفيه فى قوة ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، مستطردًا :

ـ دعهم يعترفون بكفاءتنا يا رجل .

ابتسم (نسيم) ، قائلاً :

ـ سأبذل قصارى جهدى ، وعليك أن تفعل المثل هنا .. وأنا واثق من أنك ستنجح مع ذلك الشاب .. المهم أن تبلغنى ، ما الذى تأثّر فيه ، بعد إصابة مخه ؟

تنهّد (رفعت) ، وهو يقول :

ـ المهم أن أعرفه أوّلاً يا رجل .. أن يجيب الزمن السؤال .

نعم ..

المهم أن يجيب الزمن السؤال ..

ما الذى فقده الشاب ؟!..

ما هو ؟!..

* * *

وقف (رفعت) صامتًا ، فى ركن حديقة المستشفى ، المطلّ على النيل ، يراقب الشاب ، الذى يجوّل وحده فى الحديقة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما داعب الشاب طفلة صغيرة ، ثم حملها فى هدوء ، وطبع على وجنتها قبلة حانية ، قبل أن يعيدها إلى أمها ، وهو يمنحها ابتسامة عذبة هادئة ..

« لقد تحسّن كثيرًا .. »

انبعثت العبارة من خلفه ، فاستدار (رفعت) إلى صاحبتها ، الممرضة الأولى لقسم العناية المركّزة ، وحاول أن يبتسم ، وهو يجيب :

ـ هذا يبدو واضحًا .

ابتسمت ابتسامة كبيرة ، عوّضت ابتسامته الباهتة ، وهى تقول :

ـ إنه صاحب إرادة فولاذية بحق .. لقد حقّق فى ثلاثة أشهر ، ما يعجز عن تحقيقه مريض مشابه فى عام كامل .. هل رأيت كيف يسير ويتحرّك .. لقد استعاد توافقه العصبى كله تقريبًا .

سألها (رفعت) فى اهتمام :

ـ لماذا لم يتحدّث حتى الآن إذن ؟.. هل أصيب مركز الكلام فى مخه مثلاً ؟!

ضحكت قائلة :

ـ هذا غير وارد ، فمركز الكلام فى الجانب الأيسر من المخ(*) ، وإصابته تركّزت كلها فى الجانب الأيمن الخلفى ..

تطلّع طويلاً إلى الشاب ، قبل أن يكرّر :

ـ لماذا لا يتكلّم إذن ؟

قالت فى اهتمام :

ـ يبدو لى أن هذا جزء من شخصيته ، أو ...

صمتت بغتة ، مما استثار انتباهه ، فالتفت إليها يسألها :

ـ أو ماذا ؟

أجابته بعد فترة من التردد :

ـ أو أنه يشعر بالحيرة ..

أطلّ التساؤل من عينيه ، فأكملت بسرعة :

(*) حقيقة علمية .

ـ عندما يكون وحده ، أو يتصوّر أنه كذلك ، يتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة ، أو غير المترابطة ، ويتأمّل كل ما حوله بنظرة حائرة .. ألم تنتبه إلى النظرة التى يحدجك بها ، كلما أتيت لزيارته ؟!.. إنه ينتظر زياراتك باهتمام بالغ ، وتمتلئ عيناه بالتساؤلات ، وهو يتطلّع إليك .. أكاد أقسم إنه يخفى شيئًا ما فى أعماقه ، أو ...

كانت تستدير نحو الحديقة ، وهى تواصل حديثها ، عندما بترته بغتة ، وشهقت على نحو جعل (رفعت) يستدير بدوره ، و ...

وكانت مفاجأة ..

لقد وجد نفسه يتطلّع مباشرة إلى عينى الشاب ، الذى يقف على مسافة متر واحد منه ، وينظر إليه باهتمام شديد ..

ثم انفرجت شفتا الشاب ..

انفرجتا فى بطء ، وهو يسأل بكلمات متعثّرة :

ـ من ..... من أنا ؟!

وكان للسؤال وقع كالصاعقة ، ولكنه حمل فى طياته جوابًا واضحًا ..

الآن فقط ، عرف (رفعت) ما الذى فقده الشاب ..

عرفه فى وضوح .

* * *

« ذاكرته .. » ..

نطق (رفعت) الكلمة فى حزم ، أمام مدير المخابرات ، الذى ارتفع حاجباه فى شدة ، ثم عادا ينخفضان ، وهو يقول :

ـ إذن فقد فَقَدَ ذاكرته تمامًا ؟!.. يالها من مصادفة !.. ألا يذكر أى شىء عن ماضيه ؟

هزّ (رفعت) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .. عقله صار صفحة بيضاء ، لم يمسّها الحبر ، إلا منذ استعاد وعيه .. من هنا فقط تبدأ ذاكرته ، أما كل ما سبق هذا ، فقد تلاشى تمامًا ، وكأنما لم يكن له وجود من قبل .

صمت المدير لحظات ، وهو يتطلّع إليه ، ثم تراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ مازالت الفرصة أمامك يا (رفعت) .. لو أردت أن تتراجع ، فلن يلومك أحد قط .

أجابه (رفعت) فى سرعة :

ـ مستحيل !.. فقدان الشاب لذاكرته أمر مؤسف بالتأكيد ، لو نظرنا إليه من الناحية الإنسانية أو الاجتماعية ، أما من الناحية العملية ، فهو يتفق تمامًا مع خطتى الأوّلية ، بل ويساعده كثيرًا .. لقد فقد الشاب ذكرياته وماضيه ، ولكنه لن يفقد قوته وإرادته وعزمه ، وذلك الانتماء الذى يتدفّق فى عروقه ، ويجرى فيها مجرى الدم .. ولقد انتهى ماضيه بالفعل ، منذ أوردنا اسمه فى قائمة شهداء حرب أكتوبر ، ويمكننا أن نقول إنه وُلِدَ فقط عندما استعاد وعيه .. وُلِدَ باسم جديد ، وهوية جديدة .

سأله المدير مبتسمًا :

ـ وأى اسم ستمنحه إياه ؟

انعقد حاجبا (رفعت) فى شدة ، وهو يقول :

ـ من الناحية الرسمية ، وطبقًا لما سيدوّن فى السجلات ، سنمنحه ليس اسمًا واحدًا ، وإنما عدة أسماء ، تتيح له حرية الحركة وسرعة التخفّى ، أما هنا ، فلن يحمل سوى اسم واحد .

سأله المدير ، وهو يعتدل فى اهتمام :

ـ أى اسم ؟

صمت (رفعت) لنصف دقيقة كاملة هذه المرة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ نفس الاسم المرسوم على ملفه ..

وامتزج حزمه بنبرة صارمة ، وهو يستطرد :

ـ اسم (فاى) .

وأعلن القدر مولد رجل جديد ..

رجل من طراز خاص ..

خاص جدًا .

* * *

٦ ـ فـاى ..

الخامس والعشرون من يناير ١٩٧٥ م ..

أضىء مصباح أحمر ، فى سقف طائرة نقل الجنود ، وهى تحلّق على ارتفاع شاهق ، فارتفع صوت صارم يقول :

ـ استعدّ للقفز .

نهض الراكب الوحيد فى الطائرة ، وهو يحكم حقيبة مظلته خلف ظهره ، ووقف أمام الباب المفتوح ، وهو يلتقط أنفاسه فى بطء ، ليملأ صدره كله بالهواء ، فى ذلك الارتفاع ، الذى يختلف فيه الضغط الجوى تمامًا ، عن مثيله على سطح الأرض(*) ، وتعلّق بصره بالمصباح الأخضر ، الذى أضىء بدوره ، وصاحب الصوت يهتف :

ـ اقفز ..

قبل حتى أن تكتمل الكلمة ، كان الشاب قد قفز بالفعل ، وراح جسده يهوى فى السماء ، مخترقًا السحب الكثيفة ، ومتجاوزًا إياها ، ليتجه نحو الأرض ، التى بدت له بعيدة صغيرة ، من ذلك الارتفاع الكبير ..

(*) الضغط الجوى : هو الضغط الذى يحدثه وزن كل طبقات الهواء على الأرض ، ويبعد عن سطح البحر حوالى ١٤,٧ باوند ، لكل بوصة مربعة ، وهو الضغط الكافى لرفع عمود من الزئبق ، مساحة قاعدته ١ سم٢ ، لمسافة ٧٦٠ مليمتر إلى أعلى .

وداخله ، راحت متوالية عددية تتردّد بسرعة :

ـ ألف وواحد .. ألف واثنان .. ألف وثلاثة .. ألف و ...

فجأة ، تفجّر شيء ما فى عقله ..

إنها ليست أوّل مرة ، يمرّ فيها بمثل هذا الموقف ..

لقد فعلها من قبل ..

وعلى النحو نفسه ..

ولكن متى ؟!..

متى وأين ؟!..

كاد التساؤل يستغرقه تمامًا ، ولكنه نفضه بسرعة عن رأسه ، وأكمل :

ـ ألف وعشرون .. ألف وواحد وعشرون ..

بذل جهدًا ليطرد تلك الذكريات المشوّشة ، التى تهاجم عقله فى إصرار ، وواصل العدّ ، حتى بلغ الحد المطلوب ، فجذب خيط المظلة ، التى انفتحت على الفور ، وصنعت شكلاً أشبه بقبة ضخمة ، فى قلب السماء ..

وفى مهارة ، راحت يداه تجذبان حزامى المظلة ، فى تناسق مدروس ، لتتجه بحملها إلى نقطة الهبوط ، التى تم تحديدها مسبقًا ..

مبنى من عشرين طابقًا ، فى أحد الأحياء الراقية فى (الجيزة) ، هبط هو فوقه فى براعة ، ولم يكد يلمس سطحه ، حتى جذب المظلة بكل قوته ، وترك جسده ينثنى فى مرونة ، وهو

يجمع قماشها العريض ، ويدفعه داخل حقيبتها ، ثم يعتدل ، ويتلفّت حوله فى حذر ، ليتأكّد من أنه وحده على السطح ..

وعند حاجز السطح ، انحنى يعدّ الأدوار أسفله ، ليحدّد نوافذ الطابق السابع عشر ، ثم ثبّت خطافًا قويًا فى إحدى المواسير القوية ، وألقى حبلاً قصيرًا ، وتعلّق به ، وأخذ يهبط فى سرعة ، مستندًا بساقيه إلى حائط المبنى ، حتى بلغ أحد نوافذ الطابق السابع عشر ، فأطلّ بنظره عبرها فى حذر ، وتأكّد من أن أحدًا لا يلمحه ، وأخرج من جيبه قاطع زجاج ماسيًا ، واقتطع به قطعة من زجاج النافذة ، امتدّت يده عبرها تزيح الرتاج ، ثم وثب داخل المكان ..

وفجأة ، برز أحد الحرّاس عند الباب ، وهتف :

ـ ما هذا ؟

كانت يده تسرع نحو مسدسه ، ولكن الشاب وثب فى براعة وخفة ، وركل الحارس فى وجهه ، ثم هبط على قدميه ليلكمه فى أنفه وفمه ، فتراجع الحارس فى عنف ، وتفجّرت الدماء من أنفه ، ومن ركن شفتيه ، ولكنه عاد ينقضّ مرة أخرى ، فقفز الشاب ثانية ، ودار جسده كله حول نفسه فى سرعة مدهشة ، قبل أن تضرب قدمه صدر الحارس ، وتلقيه مرة أخرى إلى الخلف ، ليرتطم فى الجدار ، ويسقط على وجهه ..

ومع سقوطه ، برز حارسان آخران ، استلّ كل منهما مسدسه بالفعل ، ولكن الشاب جذب مسدسه بسرعة تفوّقت عليهما ، وأطلق النار ..

ولكن صوت إطلاق النار كان عجيبًا ..

كان يختلف تمامًا عن دوى الرصاصات المعروف ، وحتى عن صوت رصاصة تخرج من كاتم للصوت ..

كان أشبه بسعال مكتوم ..

حتى الدماء التى تفجّرت فى رأس أحد الحارسين ، وصدر الثانى ، لم تكن حمراء قانية ككل الدماء ..

بل كانت وردية باهتة ، ذات ملمس أكثر لزوجة ..

ولكن الأكثر غرابة ، هو أن أحد الحارسين لم يسقط أرضًا ..

فقط ارتسم الحنق على وجهيهما ، عندما أصابتهما تلك الرصاصات العجيبة ، فى حين أضىء المكان كله ، وارتفع فيه صوت المقدّم (رفعت) ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. يمكننا اعتبار هذه التجربة ناجحة .. وبلا خسائر .

نهض الحارس الأوّل ، وهو يمسح الدماء عن أنفه وفمه ، قائلاً فى سخط :

ـ ماذا تسمى هذا إذن ؟

أجابه (رفعت) فى صرامة :

ـ ضرورات المهنة .

تبادل الحراس الثلاثة نظرة سريعة ، ثم زفر أحدهم ، وهو يتقدّم ليصافح الشاب ، قائلاً :

ـ أهنئك .. أنت تجيد إطلاق النار بحق ، وسرعة التقاطك لمسدسك تثير الإعجاب .

تمتم الشاب :

ـ أشكرك .

غادر الحرّاس الثلاثة المكان ، وبقى (رفعت) وحده مع الشاب ، الذى سأله :

ـ ما الذى ينبغى أن أفعله ، لأسمع عبارة : « رائع .. عملية ناجحة تمامًا .. » ؟

صمت (رفعت) لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ أن تخوض عملية حقيقية .

سأله الشاب :

ـ وما الفارق ؟!.. إننا نتعامل مع كل تدريب ، وكأنه عملية حقيقية .

تطلّع إليه (رفعت) لحظات أخرى فى صمت ، ثم أشار إلى رأس الشاب ، قائلاً :

ـ الفارق يكمن هنا .

ثم خفض سبّابته ، ليشير إلى صدره ، مستطردًا :

ـ وهنا .

نظر إليه الشاب فى تساؤل ، فأوضح بنفس اللهجة الحازمة :

ـ صحيح أننا نتعامل مع كل تدريب وكأنه عملية حقيقية ، ولكنك تعلم فى أعماقك أنه مجرّد تدريب ، وقلبك لا يشعر بالخوف من المواجهة الحقيقية ، وهذا لا يُبرز قدراتك الحقيقية .

صمت الشاب لحظات فى حيرة ، قبل أن يقول :

ـ ولكننى أشعر دائمًا أنها ليست المرة الأولى .. أشعر أننى فعلت هذا من قبل .. حتمًا فعلته .

قاوم (رفعت) ابتسامته ، ووأدها فى مهدها ، وهو يقول فى اقتضاب :

ـ ربّما .

تطلّع إليه الشاب طويلاً ، وكأنما يحاول الغوص فى أعماقه ، واستخراج ما يخفيه فيها من معلومات وأسرار ، قبل أن يسأل فى بطء :

ـ أنت تعرف من أنا .. أليس كذلك ؟

أجابه (رفعت) فى هدوء :

ـ ما الذى تبحث عنه بالضبط يا (فاى) ؟

قال الشاب فى صرامة :

ـ اسمى ليس (فاى) بالتأكيد .

سأله (رفعت) :

ـ ولِمَ لا ؟!

أجابه متوترًا :

ـ إيقاع الاسم نفسه لا يروق لى .. إننى مصرى .. هذا ما أثق به تمامًا ، حتى ولو فقدت ذاكرتى كلها .. لهجتى نفسها تؤكّد هذا ، هذا الاسم (فاى) لا يبدو مصريًا أبدًا .

قال (رفعت) ، فى شىء من الحذر :

ـ ربما كان فرعونيًا .

هزّ الشاب رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يشير إلى الرسم على صدره ، قائلاً :

ـ بل هو رمز رياضى .. ها هو ذا .. إننى أحمله على صدرى .. شكل بيضاوى يقطعه خط مستقيم رأسى .. لقد بحثت فى القواميس الموجودة بالمكتبة ، حتى عرفته .. إنه ليس اسمى .. إنه الرمز الذى يشير إلىّ ، ولكن ما هو اسمى الحقيقى ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول (رفعت) :

ـ وبمَ تفيدك معرفته ؟

أجابه الشاب :

ـ أن أشعر بهويتى .

أشار إليه (رفعت) ، قائلاً :

ـ هويتك مصرية .. أنت قلت هذا بنفسك .

صاح الشاب :

ـ هذا صحيح ، ولكن من أنا ؟!.. من صاحب هذا الجسد ؟.. ما اسم صاحب الوجه الذى أحمله ؟!.. من حقى أن أعرف .. من حقى أن أفهم .

لاذ (رفعت) بالصمت تمامًا ، حتى أفرغ الشاب ثورته ، ثم أجابه فى حسم :

ـ نعم .. من حقك أن تعرف ، وأن تفهم .

انتبهت كل حواس الشاب ، وتعلّق بصره بشفتى (رفعت) فى لهفة ، قبل أن يستدرك هذا الأخير فى سرعة :

ـ ولكن السؤال هو : فيم يفيدك هذا ؟

قال الشاب فى دهشة :

ـ فى أن أعرف من كنت على الأقل .

قال (رفعت) فى صرامة :

ـ وماذا لو أنك كنت لصًا أو قاتلاً محترفًا ؟!

ارتدّ الشاب كالمصعوق ، ولكن (رفعت) واصل فى عنف :

ـ ماذا لو أننى أنقذتك من حكم الإعدام مثلاً ، أو أنك كنت أحد جواسيس العدو ، وأمكننا تجنيدك ، أو ...

قاطعه الشاب فى عنف :

ـ مستحيل !..

ثم أشار إلى صدره ، مستطردًا فى صرامة :

ـ صحيح أننى فقدت ذاكرتى ، ولكننى لم أفقد قط ذلك الانتماء فى أعماقى .. لم أفقد تلك الارتجافة ، التى تسرى فى عروقى ، كلما سمعت اسم (مصر) .. مازال كيانى كله على أتم الاستعداد لتلبية ندائها ، فى أية لحظة ، ومهما كان الثمن ، و ...

ارتجّ شىء ما فى أعماقه ، مع الجزء الأخير من العبارة ..

مهما كان الثمن ..

متى سمعها من قبل ؟!..

من ردّدها على مسامعه ؟!..

أى أثر تركته فى أعماقه ؟!..

كان من الممكن أن يغرق فى تساؤلاته طويلاً ، إلا أنه أزاحها جانبًا فى سرعة ، وهو يكمل ، بعد وهلة من الصمت :

ـ والشخص الذى يحمل هذه المشاعر تجاه وطنه ، لا يمكن أبدًا أن يصبح لصًا أو قاتلاً ، ومن المستحيل أن يخون وطنه ، مهما كانت المغريات .

ترك (رفعت) ابتسامته تطفو على شفتيه ، وهو يقول :

ـ هذا ما أردت أن أسمعه منك .

ثم تقدّم نحوه ، ووضع يده على كتفه ، مستطردًا :

ـ لقد كنت على حق ، فى كل ما قلته .. مثلك يستحيل أن يخطئ فى حق نفسه ، أو فى حق وطنه .. أنت لم تكن أبدًا لصًا أو قاتلاً أو جاسوسًا .. بل على العكس تمامًا .. لقد كنت بطلاً .. كنت واحدًا من أعظم الأبطال ، الذين بذلوا أنفسهم فى سبيل الوطن .. كنت بطلاً تفخر به بلاده .

انتشى الشاب بالكلمات ، وتضاعفت اللهفة فى نفسه ، و (رفعت) يتابع :

ـ إنك لم تتردّد لحظة واحدة فى التضحية بحياتك نفسها ، من أجل (مصر) ..

انتفضت عروق الشاب ، عندما سمع الكلمة السحرية ، التى ينهار لها وجدانه ، وراح قلبه ينبض فى عنف ، مع كلمات (رفعت) ، ونبرته الحماسية :

ـ ولم تتخلّ عنك (مصر) ، بعد كل ما فعلته من أجلها .. لقد استعادتك من بين جثث الموتى ، وبذلت جهدها وأموالها ، لتمنحك الرعاية والعناية ، وتتجاوز بك حافة الخطر .. اللّه (سبحانه وتعالى) كتب لك البقاء ، وأطال فى عمرك لحكمة لا يعلمها إلا هو

(سبحانه) .. لقد حصلت على فرصة نادرة يا فتى .. انمحت كل ذاكرتك السابقة ، وبدأت حياة جديدة ، وكأنك تُبعث بعد الموت .. وسبحان اللّه الذى يحيى ويُميت .. اللّه (عزّ وجلّ) شاء لك أن تبدأ من جديد ، فلماذا تنبش ماضيك ؟!.. دعه خلف ظهرك .. لا تبحث عنه .. خض حياتك الجديدة بروح واعدة .. خضها باسمك الجديد ، وهويتك الجديدة .. خضها بلا تساؤلات أو منغصات ، من أجل نفسك .

ثم اقترب منه فى شدة ، مضيفًا بلهجة تموج بالحماس والانفعال :

ـ ومن أجل (مصر) .

انتفض الشاب كله هذه المرة ، وهو يقول ، فى حماس منقطع النظير :

ـ كلى لها .

ثم شدّ قامته ، مستطردًا :

ـ صحيح أننى مازلت أجهل الحكمة من هذا ، ولكننى أعدك بأننى ، ومنذ هذه اللحظة ، سألقى حياتى السابقة كلها خلف ظهرى ، ولن أحاول قط معرفة ما كنت عليه ، وسأحمل حتى آخر لحظة فى عمرى اسمًا واحدًا .

وأشار إلى صدره ، مضيفًا فى حزم وحسم :

ـ اسم (فأى) .

وانتفض جسده فى حماس أكثر ..

* * *

« احترس يا (رفعت) ... » ..

نطق مدير المخابرات هذه العبارة الموجزة فى حزم ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجه (رفعت) ، مستطردًا :

ـ تذكّر القاعدة الرئيسية فى عملنا .. « لا تقع فى حب العميل .. » .. تعامل معه دائمًا بدون مشاعر أو عواطف ، وإلا فقد تنحاز له ، حتى عندما يقع فى أخطاء جسيمة ، فتهدّد بهذا أمنه ، وأمن الوطن كله .

صمت (رفعت) لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ اطمئن يا سيّدى .. ليس أنا من يفعل هذا .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ هذا يحدث دائمًا دون أن نشعر يا (رفعت) .. إنك تؤمن تمامًا بالمبدأ ، ولكن العميل يجتذب إعجابك يومًا فيومًا ، فلا تنتبه إلا وأنت مغرم به ، بحيث تبدو لك كل أفعاله صحيحة ، مهما انطوت على خطأ .

عاد (رفعت) إلى صمته لحظات أخرى ، ثم قال :

ـ الواقع أن هذا الشاب بالذات أثار إعجابى واهتمامى ، منذ اللحظة الأولى يا سيّدى ، من قبل حتى أن يستعيد وعيه ، وهذا كان السبب الرئيسى ، فى إصرارى على تجنيده بين صفوفنا ، ولكن هذا الإعجاب يتخذ معى اتجاهًا آخر ، بخلاف ما يثير قلقكم .. إننى أريد أن أصنع من هذا الشاب تحفة نادرة ، فى عالم

المخابرات ، ولهذا فأنا لا أتغاضى عن أية أخطاء يرتكبها ، مهما كانت بسيطة ..

وشرد ببصره ، وهو يضيف :

ـ بل وربما أقسو عليه فى بعض الأحيان ، على الرغم من إعجابى به ، ولكننى أتعامل معه كما يتعامل الأب مع ابنه ، الذى يتمنى رؤيته فى أرفع مكانة فى الدنيا كلها .. صدقنى يا سيّدى .. هذه العملية تهمنى .. تهمنى أكثر مما تتصوّرون .

كان تهدّج صوته الواضح ، وهو يشرح الأمر ، يشير إلى عكس ما يحاول إقناع المدير به تمامًا ..

ولقد أدرك المدير هذا بالفعل ..

ولكن ، من حسن الحظ أن القواعد فى عالم المخابرات ليست صارمة إلى حد الجمود ..

إنها تسبح فوق بحر من المرونة والحكمة ، مما يؤثر على صانع القرار فيها ، ويجعله أكثر قدرة على التعامل مع الأحداث والمتغيرات ..

ومن هذا المنطلق ، أومأ المدير برأسه ، ثم قال :

ـ فليكن يا (رفعت) .. سأسمح لك بإكمال المهمة حتى النهاية .

تألّقت عينا (رفعت) ، على الرغم من الجهد الخارق ، الذى بذله للسيطرة على انفعاله ، ولكن المدير تنهّد ، وهو يضيف :

ـ على الرغم من أن الظروف ستتعارض مع هذا .

سأله (رفعت) ، وقد مال انفعاله كله إلى جانب القلق :

ـ أية ظروف ؟

أجابه المدير بابتسامة هادئة :

ـ لقد انتهت فترة عمل (نسيم) فى مكتب (نيويورك) ، وسيعود إلى هنا ، ليتسلّم عمله فى الجهاز .. خمّن من سيحل محله هناك .

ارتفع حاجبا (رفعت) ، وهو يقول :

ـ هل تقصد سيادتك أننى ... ؟

قبل أن يتمّ تساؤله ، أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا (رفعت) .. أنت المدير الجديد لمكتبنا فى (نيويورك) .. هيّا أعدّ حقائبك ، واستعد للسفر خلال ثلاثة أيام ، فـ (نسيم) ينتظرك على أحرّ من الجمر ، لتتسلّم العمل ، ويعود هو إلى الوطن .

صمت (رفعت) لحظات فى شرود ، فابتسم المدير ، قائلاً :

ـ وستحتاج إلى مساعد بالطبع ، ولقد رشحت لك النقيب (حسن عبد الله) .

انعقد حاجبا (رفعت) ، وهو يقول :

ـ (حسن عبد الله) ؟!.. من هو ؟.. لم أسمع به من قبل !

قال المدير ، وهو يمدّ يده إليه بصورة ضوئية :

ـ ربما لا تعرف اسمه ، ولكنك بالتأكيد تعرف هيئته .. ها هى ذى صورته .

ولم يكد (رفعت) يلقى نظرة على صاحب الصورة ، حتى ارتفع حاجباه فى دهشة ، فى حين أكمل المدير فى جدية حاسمة :

ـ إنه يحتاج إلى التدرّب على التعامل فى أرض أجنبية .. أليس كذلك ؟

ولم ينطق (رفعت) بكلمة واحدة ، وإن شعر فى أعماقه بامتنان كبير ، فالصورة التى أعطاه إياها المدير ، والتى تحمل اسم النقيب (حسن عبد الله) ، كانت فى الواقع صورة الشاب .. صورة (فاى) .

* * *

٧ ـ الرهائن ..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى (نسيم) ، وهو يستقبل صديقه (رفعت) ، ويصافحه فى حرارة ، مربتًا على كتفه ، قائلاً :

ـ مرحى يا رجل .. لا يمكنك أن تتصوّر كم اشتقت إليك .

أجابه (رفعت) بابتسامة هادئة ، ولهجة تحمل شوقًا حقيقيًا :

ـ شعور متبادل يا رجل .

أدار (نسيم) عينيه إلى الشاب ، وارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ أهذا هو ؟!

جاء صوت (رفعت) محمّلاً بنبرة فخر واعتزاز ، وهو يجيب :

ـ نعم .. إنه هو .

تطلّع (نسيم) إلى الشاب لحظة فى صمت ودهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وهو يصافحه ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك بين صفوفنا يا فتى .

فوجئ بـ (رفعت) يقول فى حزم صارم :

ـ ليس بعد .

انعقد حاجبا الشاب فى ضيق ، فى حين قال (نسيم) فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟!.. لقد حضر معك بصفة رسمية .. أليس كذلك ؟

رفع (رفعت) سبّابته ، مجيبًا :

ـ تحت الاختبار فحسب .

واصل (نسيم) التطلّع إليه فى دهشة ، لفترة من الوقت ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ آه .. بالطبع .

ثم التفت إلى الشاب ، مستطردًا :

ـ مرحبًا بك على أى حال .

وغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ تحت الاختبار .

ابتسم الشاب ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيّدى .

شملهم صمت قصير بلا مبرّر ، قبل أن يقول (رفعت) :

ـ متى تعود إلى الوطن يا (نسيم) ؟

هزّ (نسيم) كتفيه ، قائلاً :

ـ فور انتهائى من حزم حقائبى يا صديقى .. إننى أكاد أموت شوقًا للعودة إلى (مصر) .

ثم هزّ رأسه ، وابتسم مستطردًا :

ـ عجيبة هى (مصر) هذه .. تحنقك أوجه القصور فيها ، ويغضبك الإهمال فى بعض أماكنها ، ولكنك ما إن تبتعد عنها ، حتى تكشف أن قلبك ينبض باسمها ، وأنك تذوب شوقًا للعودة إليها .

أجاب الشاب فى سرعة :

ـ لأنها (مصر) .

نطقها وكأن هذا وحده سبب كاف لعشقها والشوق إليها ..

وفى لحظة صمت تالية ، تطلّع إليه (رفعت) و (نسيم) فى صمت ، قبل أن يقول الأوّل :

ـ ماذا فعلت برجال الـ (سى . آى . إيه)(*) ؟.. هل جعلتهم يقسمون إننا الأفضل ؟

ضحك (نسيم) ، قائلاً :

ـ من الواضح أن فكرتك عن العمل هنا وردية للغاية يا رجل .. إننا نقضى معظم وقتنا فى جمع المعلومات ، وتنسيقها ، وإرسالها بالشفرة إلى (القاهرة) ، ثم ننتظر أوامرهم ، ونعمل على تنفيذها .. إننا لم نحتك بالمخابرات الأمريكية مباشرة سوى مرتين ، وفيما عدا هذا ، كنا نقضى الكثير من الوقت فى مشاهدة (التليفزيون) ، و ...

كان ينطق عبارته الأخيرة ، وهو يشير إلى (التليفزيون) ، الذى انقطع إرساله فجأة ، وظهر وجه مذيعته الشهيرة ، وهى تقول :

ـ سيّداتى سادتى .. نقطع برامجنا المعتادة ، لنذيع عليكم هذا الخبر الهام .. احتلّ عدد من الإرهابيين أحد المتاجر الكبرى فى قلب (نيويورك) ، واحتجزوا عددًا من الرهائن ، من بينهم زوجة وزير التجارة الفرنسى ، والممثلة العالمية (ريتا براون) والسفير المصرى ، و ...

(*) سى . آى . إيه : المخابرات المركزية الأمريكية .

لم يسمع (رفعت) باقى الخبر ، وهو يهتف :

ـ ربّاه !.. سفيرنا فى قبضتهم .

أشار إليه (نسيم) بالصمت ، قائلاً :

ـ مهلاً يا رجل .. دعنا نتابع الحدث كله .

واصلت المذيعة سرد أسماء بعض الرهائن ، قبل أن تتابع :

ـ ولقد حاصرت قوات الشرطة المبنى ، ولكن الإرهابيين طلبوا فدية قدرها خمسة ملايين دولار ، وطائرة هليوكوبتر كبيرة ، تنقلهم إلى جهة لم يتم تحديدها بعد ، وهدّدوا بقتل أحد الرهائن كل ساعتين ، ما لم تتم الاستجابة لمطالبهم ، ومازال رجال الشرطة يتفاوضون معهم للإفراج عن الرهائن ، و ...

استمرّت المذيعة فى إعلان الخبر ، فى حين غمغم الشاب :

ـ إنهم يحتجزون مصريًا .

أجابه (نسيم) :

ـ ليس مصريًا عاديًا .. إنه سفيرنا نفسه .

قال الشاب فى حزم :

ـ هذا لا يهمّ .

هتف (نسيم) فى دهشة :

ـ ماذا تقول ؟

انتبه (رفعت) إلى الشاب ، وهو يجيب :

ـ أقول إن مهنته لا تهم .. المهم أنه مصرى .. أى مصرى ، ولا يمكننا أن نسمح لهم بتهديد مصرى قط .

تألّقت عينا (رفعت) ، وهو يستمع إلى هذه الكلمات ، فى حين التفت إليه (نسيم) ، وقال فى دهشة حقيقية ، وهو يشير إلى الشاب :

ـ قل لى : أيعنى حقًا ما يقول ؟

ابتسم (رفعت) ، قائلاً :

ـ (فاى) قليل الحديث ، ولكنه يعنى دائمًا كل حرف ينطق به .

ثم وضع يده على ذراع الشاب ، قائلاً فى حزم :

ـ أعتقد أن الفرصة جاءتك يا (فاى) .

التفت إليه الشاب فى حركة حادة ، وسأل بصوت يلتهب حماسًا وانفعالاً :

ـ هل تعتقد هذا حقًا ؟

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. لن ننتظر الأوامر هذه المرة .. سأتحمّل المسئولية كاملة ، وأسند إليك هذه المهمة .

هتف (نسيم) مستنكرًا :

ـ هل جننت يا رجل ؟.. إنه شاب واحد ، وحديث العهد بالعمل ، و ...

لم يلتفت (رفعت) للقول ، وكأنه لم يسمعه ، وهو يمسك ذراع الشاب فى قوة ، قائلاً :

ـ افعلها يا فتى .. انقذ هؤلاء الرهائن ، وعلى رأسهم السفير المصرى .. افعلها من أجلى .. من أجل (مصر) .

انتفض جسد الشاب كله ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيّدى .. أشكرك كثيرًا .

وأخرج مسدسه ، وجذب مشطه ، وتركه يرتدّ فى عنف ، بذلك الصوت المعدنى ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ متى نبدأ ؟

أشار (رفعت) بسبّابته ، وتألّقت عيناه ، وهو يهبط بها فى حزم :

وكانت هذه إشارة البدء ..

* * *

اكتظّت تلك المنطقة من (نيويورك) على نحو بشع ، فى تلك اللحظات ، واحتشد حولها جيش من رجال الشرطة ، والإطفاء ، والحرس الوطنى ، ورجال الصحافة ، والإعلام ، والمارة ، والمتطفلين ، حتى لم يعد هناك موطئ لقدم ، وتعلّقت أبصار الجميع بذلك المتجر ، المكوّن من خمسة طوابق ، والذى أُغلِقَتْ بوّابته الزجاجية السميكة ، المضادة للرصاص ، وظهر خلفها اثنان من الإرهابيين ، يحملان مدفعين آليين ضخمين ، فى حين بدا زميلان لهما واضحين ، فوق سطح المبنى ، بمدفعيهما الكبيرين ، ومعهما ثلاثة من الرهائن ، فى حالة يرثى لها ، وبرز زعيم الإرهابيين من نافذة بالطابق الخامس ، وهو يصيح فى صرامة :

ـ بقيت ساعة واحدة ، ونرسل إليكم الضحية الأولى .. وأرجو أن تدركوا جيدًا أننا لا نهزل ، وأن ما نقوله ليس مجرّد تهديدات

جوفاء .. ساعة فقط ، فإما أن تصل الهيوكوبتر مع النقود ، أو نثبت لكم صحة ما نقول .

عقد ضابط المباحث الفيدرالية الأمريكى (مارش) حاجبيه فى غضب ، عندما سمع هذا القول ، وغمغم محنقًا :

ـ يا للوغد !

ثم التفت إلى أحد مساعديه ، واستطرد فى حدة :

ـ ماذا يفعلون هناك فى القيادة ؟.. الوقت يمضى فى سرعة ، وهم لا يحركون ساكنًا .. أين ردود الأفعال المنتظرة ؟

أجابه مساعده ، فى توتر مماثل :

ـ لست أدرى ما يفعلونه بالضبط .. يقولون إنه من الضرورى أن يجمعوا أكبر قدر من المعلومات أوّلاً ، قبل اتخاذ أية خطوة تالية .. ثم إنهم يفضلون الانتظار حتى آخر وقت ممكن .

هتف (مارش) فى حنق :

ـ آخر وقت ممكن ؟!.. كيف يفكّر هؤلاء الحمقى بالضبط ؟!.. الأمر لا يحتمل الانتظار والتروّى .. إما أن يستجيبوا لمطالب هؤلاء الأوغاد ، أو يقاتلوهم مباشرة .. فليرسلوا الهليوكوبتر والنقود ، أو فرقة مسلّحة لاقتحام المكان ، وإنقاذ هؤلاء الرهائن .

هزّ مساعده رأسه ، وهو يقول :

ـ لو أننى فى موضعهم ، لما كان القرار سهلاً بالنسبة لى على الإطلاق ، فالصحافة لن ترحمهم لو دفعوا الفدية بهذه البساطة ، وسيتهمهم الرأى العام بأنهم تقاعسوا عن أداء واجبهم ، وبأنهم بهذا يفتحون الباب أمام أية عمليات إرهابية

أخرى ، بعد أن سمحوا لهؤلاء الإرهابيين بتحقيق أهدافهم ، ولو أنهم أرسلوا فرقة لاقتحام المكان ، ستكون هناك خسائر حتمًا فى الأرواح ، بين صفوف الفرقة ، وبين الرهائن أنفسهم ، وفى هذه الحالة أيضًا لن يرحمهم أحد .

لوح (مارش) بيده ، قائلاً :

ـ وماذا عن هؤلاء الرهائن ؟.. من يرحمهم ؟

تنهّد مساعده فى أسف ، مغمغمًا :

ـ من يدرى ؟!

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان (رفعت) يُخفض منظاره المقرّب عن عينيه ، فى نافذة مبنى يواجه المبنى التجارى مباشرة ، ويقول فى اهتمام :

ـ تسعة أشخاص .

غمغم (نسيم) ، وهو يواصل المراقبة :

ـ هذا ما أحصيته أيضًا .. اثنان فى المدخل ، ومثلهما فوق السطح ، والزعيم وثلاثة فى الطابق الخامس ، وواحد يفتش الطوابق الأخرى طوال الوقت .

ثم التفت إلى الشاب ، الذى يعدّ مسدسه ، وقد ارتدى تلك الحلة السوداء ، التى تحمل على الجانب الأيسر من صدرها الرمز (فاى) ، واستطرد فى قلق :

ـ هل يمكنك مواجهة كل هؤلاء بمسدس وخنجر ؟!

أجابه (رفعت) فى ثقة ، وهو يناول الشاب جهاز اتصال لاسلكيًا صغيرًا :

ـ إنه يستطيع سحقهم وهو أعزل .

عقد (نسيم) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ المبالغة لن تكون فى صالحه .

قال الشاب فى هدوء ، لا يخلو من الحزم :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار إلى ورقة أمامه ، مستطردًا :

ـ أأنتما واثقان من أن أفضل نقطة لاقتحام المكان هى فتحات التهوية ، فى الطابق الثالث ؟!

أجابه (نسيم) فى سرعة :

ـ بدون أدنى شك .. هذا المتجر هو متجرى المفضّل ، منذ تسلّمت عملى هنا ، وبحكم العادة ، كنت أدرس مداخله ومخارجه ، كلما أتيت إليه ، ولقد لاحظت ذات مرة أن فتحات التهوية العلوية فيه مناسبة لمرور شخص متوسّط المقاييس ، وأنها تتصل بفتحات التهوية للمبنى الذى يقع خلفه مباشرة ، لأنه يخصّ المالك نفسه ، وأعتقد أن الفيدراليين الأمريكيين سيكشفون هذا بعد فوات الأوان .

سأله (فاى) ، وهو يدسّ المسدس فى حزامه :

ـ ولماذا الطابق الثالث بالتحديد ؟

أجابه (رفعت) هذه المرة :

ـ لأن الإرهابيين يحتلون بالفعل الطابقين الأوّل والخامس ، وسنراقب نحن ذلك الذى يفتش الطوابق الثلاث الأخرى ، ونتصل

بك لاسلكيًا ، لنحدد لك اللحظة المناسبة لدخول الطابق الثالث ، عندما يكون هو فى أحد الطابقين ، الرابع أو الثانى .

وأضاف (نسيم) :

ـ ثم إن الطابق الثالث يحوى الأثاثات المنزلية والأدوات الكهربائية ، وكلها أشياء كبيرة ، يمكن الاختباء خلفها وقت اللزوم .

غمغم الشاب :

ـ هل تقومون بدراسة الموقف بهذه الدقة دائمًا ؟

ابتسم (نسيم) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ بهذه الدقة ؟!.. إنك لم تر بعد الدراسات الدقيقة يا فتى .. ما نفعله الآن يندرج تحت اسم (الدراسات الميدانية المباشرة) .

وألقى (رفعت) نظرة على ساعة يده ، وهو يراقب الشاب ، الذى ارتدى معطفًا ليخفى حلته السوداء ، ثم قال :

ـ هيا يا فتى .. الوقت يمضى فى سرعة .

دسّ الشاب جهاز اللاسلكى فى جيبه ، قائلاً فى حزم :

ـ اطمئن .

واتجه فى خطوات حاسمة نحو الباب ، ولكن (رفعت) قال فى صوت خافت :

ـ (فاى) .

كاد لسانه يخونه ، وينطق الاسم الحقيقى للشاب ، ولكنه سيطر عليه فى اللحظة الأخيرة ، ونطق اسمه الجديد ، فالتفت إليه

الشاب بعينين متسائلتين ، وتقدّم هو نحوه ، وأمسك كتفيه فى قوة ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ أريد أن تنجح .

صمت الشاب لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ثم استدار ، وغادر المكان كله ..

ولثوان ، ظلّ (رفعت) صامتًا جامدًا ، يتطلع إلى الباب ، الذى غادره الشاب على الفور ، حتى انتزعه صوت (نسيم) من شروده ، وهو يقول :

ـ لا تقع فى حب العميل .

استدار إليه (رفعت) فى بطء ، دون تعليق ، فاستطرد فى حزم :

ـ هذا خطأ كبير فى عالمنا .. إنك تميل إلى هذا الشاب أكثر مما ينبغى .

كان يتوقّع إنكارًا أو استهجانًا من (رفعت) ، إلا أنه فوجئ به يجيب ، فى شىء من الحزن :

ـ هذا صحيح .

تطلّع إليه (نسيم) فى دهشة ، وهمّ بقول شىء ما ، ولكن (رفعت) استوقفه بإشارة من يده ، قائلاً :

ـ ولن نناقش هذا الأمر الآن .

ثم ضغط زر (التليفزيون) ، مستطردًا :

ـ منذ هذه اللحظة ، لن يشغل فكرنا سوى هذا الموقف .. سنتابع التغطية التليفزيونية أوّلاً فأوّلاً ، ونراقب الموقف من هنا ، ونبقى على اتصال بالشاب .

ووضع منظاره المقرّب على عينيه ، مضيفًا فى حسم واضح :

ـ وهذا كل شىء .

ولم يعلّق (نسيم) بحرف واحد هذه المرة ..

فقط وضع منظاره المقرّب على عينيه بدوره ، و ...

وواصل المراقبة ..

* * *

لم يكن الوصول إلى المبنى الخلفى عسيرًا ، بعد أن تركّزت الأبصار والجهود كلها على المبنى التجارى الأمامى ، حتى أن الشاب وجد نفسه فى سرعة ، داخل قبو المبنى ، عند فتحة التهوية الرئيسية ، قبل مرور دقائق عشر ، فرفع جهاز الاتصال اللاسلكى إلى شفتيه ، وقال :

ـ هنا (فاى) .. أنا الآن عند النقطة (١) .

أتاه صوت (رفعت) ، وهو يقول فى حماس :

ـ عظيم .. لا تضع ثانية واحدة يافتى .. تقدّم على الفور .

قال الشاب بسرعة :

ـ أنا فى طريقى .

ثم خلع معطفه ، وعلّقه فوق ماسورة قريبة ، ثم انحنى يخلع ذلك الشبّاك المعدنى الثقيل ، الذى يسدّ فتحة التهوية الرئيسية ، وانزلق داخلها ، وراح يزحف داخل ممراتها فى سرعة ومهارة ، حتى بلغ نهاية الممر ، حيث ارتفع ممر رأسى ، بارتفاع طوابق المبنى التجارى الخمس ، لتتفرّع منه مداخل الطوابق ..

وكانت جدران ذلك الممر من المعدن المصقول ، على نحو يجعل تسلّقه شبه مستحيل ، فقال الشاب عبر جهاز الاتصال :

ـ أمامى المدخل الرأسى للتهوية ، وأنا فى النقطة (صفر - ٣) .

دوت الكلمة فى رأسه بغتة ..

البقعة (صفر - ٣) ..

يومًا ما ردّد عبارة مشابهة ..

متى ؟!..

وأين ؟!..

قبل أن يسترسل فى أفكاره ، سمع صوت (رفعت) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

ـ ماذا تنتظر منى يا فتى ؟.. واصل طريقك .. لقد خسرنا نصف الساعة حتى الآن ، ولم يعد أمامنا سوى النصف الآخر .

كاد يخبره بصعوبة الموقف ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه رفض الاعتراف بهذا ، فأجابه فى حزم حاسم :

ـ أنا فى طريقى إلى الموقع (صفر) ، بإذن الله .

قالها ووضع جهاز الاتصال فى حزامه ، ثم ألصق ظهره بجدار الممر الرأسى ، ودفع قدميه فى الجدار المقابل ، و ...

وبدأ يتسلّق بهذا الأسلوب المرهق ..

ولم تكن عملية سهلة أبدًا ..

لقد أنَّ عموده الفقرى ألمًا ، وصرخت عضلات ساقيه ، وراح يلهث فى شدة ، قبل أن يتجاوز حتى الممر الخاص بالطابق الثانى ..

وهنا تجلّت إرادته الفولاذية ..

كان يمكنه أن يتوقّف لالتقاط أنفاسه ، فى الطابق الثانى ، إلا أنه خشى أن يسترخى جسده ، فلا يعود قادرًا على المضى فى ذلك الأمر الشاق مرة ثانية ..

ثم إنه كان يخشى فقدان الوقت ..

ولهذا لم يتوقّف ..

كان العرق يغمر وجهه ، والألم يسرى فى جسده كله ، ولكنه لم يتوقّف لحظة واحدة ..

لقد واصل طريقه بإرادة مذهلة ، حتى بلغ الفتحة المحدودة ، التى تقود إلى نظام التهوية فى الطابق الثالث ، فدار بجسده فى بطء ليدلف إليها ، و ...

وفجأة ، انزلقت قدماه من الجدار المقابل ، وفقد جسده توازنه ، و ...

وهوى ..

هوى من ارتفاع ثلاثة طوابق .

* * *

٨ ـ المحترفون ..

شفّت كل خلجة من خلجات (رفعت) عن ذلك القلق العنيف ، الذى يعتمل فى أعماقه ، وهو يلقى نظرة على ساعته ، ثم يعاود التطلّع إلى المبنى التجارى ، عبر منظاره المقرّب ، فقال (نسيم) :

ـ أما زلت تشعر بالقلق ؟

أجابه (رفعت) فى توتر :

ـ الوقت يمضى فى سرعة ، ولم يعد باقيًا على الموعد سوى عشر دقائق ، والفتى لم يظهر بعد .

سأله (نسيم) للمرة الخامسة :

ـ هل تعتقد أنه قادر على مواجهة الجميع هناك ؟

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ الفتى تلقّى تدريبات متفوّقة للغاية يا (نسيم) ، ثم إنه مقاتل صاعقة سابق ، أثبت مهارة مذهلة فى حرب أكتوبر ، عندما أوقف وحده طابور دبّابات حديث .

غمغم (نسيم) :

ـ وهل سينسف نفسه مع هؤلاء الإرهابيين أيضًا ؟

رفع (رفعت) المنظار المقرّب عن عينيه ، قائلاً فى ضيق :

لا تسخر من الموقف .

تنهّد (نسيم) ، وقال :

ـ صدقنى يا رجل .. لست أسخر من الموقف أبدًا ، فأنا رجل مخابرات مثلك ، ويمكننى تقدير مدى خطورة الأمر ، ولكننى أشك فى قدرة شاب منفرد ، على مواجهة تسعة من الإرهابيين دفعة واحدة .

صمت (رفعت) لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ إنه محترف .

قال (نسيم) :

ـ وماذا عنهم ؟

هزّ (رفعت) كتفيه ، قائلاً :

ـ مجرّد طغمة من الأوغاد ، الذين يتصوّرون أن مجرّد حمل السلاح يجعلهم أكثر قوة من الآخرين .

سأله (نسيم) :

ـ وهل تعتقد أن هذا يمنحه مزية كبيرة ؟

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. لا يمكنك أبدًا أن تقارن ، بين محترف وهاو ، مهما بلغ عنف ذلك الهاوى وشراسته .

تنهّد (نسيم) مرة أخرى ، قبل أن يتمتم :

ـ ربما كنت على حق .

ومع آخر حروف كلماته ، نقل (التليفزيون) صوت الضابط (مارش) ، وهو يقول لزعيم الإرهابيين ، عبر مكبّر صوتى :

ـ المسئولون وافقوا على تلبية مطالبكم ، ولكن المهلة التى منحتمونا إياها قصيرة للغاية .. نحتاج إلى ساعة أخرى لتدبير المبلغ .

أتاه صوت زعيم الإرهابيين ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. سنمنحكم ساعة أخرى .

هتف (نسيم) فى دهشة :

ـ ماذا أصاب ذلك الوغد ؟.. هل أصبح فجأة رقيق القلب ؟!

ولكن زعيم الإرهابيين جذب أحد الرهائن إليه ، وهو يكمل فى شراسة ساخرة :

ـ ولكننا سنترك لكم خلال هذه الساعة ما تذكرونا به .

وبلا ذرة واحدة من التردد أو الشفقة ، أطلق النار على رأس رهينته ، ثم ألقاه خارج النافذة ..

وانتفض جسدا (رفعت) و (نسيم) ، مع بشاعة المشهد ، ونقل التليفزيون صراخ الجماهير وذعرهم ، والجثة تسقط محطّمة الرأس من الطابق الخامس ، لترتطم بالأرض فى عنف ، والضابط (مارش) يصرخ :

ـ لماذا ؟.. لماذا ؟

أجابه زعيم الإرهابيين بضحكة ساخرة عالية ، قائلاً :

ـ إنها بطاقتنا يا رجل ، وأراهن على أنها ستجبركم على عدم مد المهلة دقيقة واحدة إضافية ، فبعد ساعة بالتحديد ، وبدون دقيقة إضافية ، سأنسف مخ هذا الرجل .

قالها ، وهو يجذب إليه أحد الرهائن ..

وانعقد حاجبا (نسيم) فى شدة ، فى حين تمتم (رفعت) فى غضب :

ـ يا للوغد !

فقد كانت الضحية المنتظرة هذه المرة هى السفير ..

السفير المصرى ..

وهتف (نسيم) :

ـ كم أتمنى أن ينسف فتاك رأس هذا الوغد ، عندما يصل إليه .

أجابه (رفعت) ، وهو ينظر إلى ساعته :

ـ المهم أن يصل إليه أوّلاً .. إننى أشعر بقلق شديد من أجله .. لماذا لم يظهر أو يتصل حتى الآن ؟!

ثم أمسك جهاز الاتصال ، مستطردًا :

ـ سأتصل به أنا .

وقبل أن تضغط سبّابته زر الاتصال ، ظهرت مذيعة التليفزيون على الشاشة ، وهى تقول فى انفعال :

ـ سيّداتـــى سـادتى .. وصلتنـا الآن معلومـات مدهشـة ، حـول هؤلاء الإرهابيين .. لقد تبين لنا أن زعيمهم هـو (بيتر سوان) ، رجل المخابرات الأمريكيـة المنشق ، وأن رفاقه من المحترفين ، الذيـن أنجبتهـم حـرب (فيتنـام)(*) ، وليسـوا مجـرّد إرهـابيين عاديين .. أكرّر : إنهم محترفون .. محترفون .

تبادل (رفعت) و (نسيم) نظرة تفيض بالهلع ، عندما كرّرت المذيعة كلمتها الأخيرة ، وهتف (نسيم) فى حنق :

ـ هذا عيب الدراسات الميدانية المباشرة ، التى لا تستند على قاعدة من المعلومات الموثّقة .

أما (رفعت) ، فضغط زر الاتصال ، هاتفًا :

ـ لابد من تحذير (فاى) .. لن يمكنه أبدًا مواجهة تسعة من المحترفين .

وهتف عبر الجهاز :

ـ (فاى) .. (فاى) .. هل تسمعنى ؟

كرّر النـداء ثـلاث مرات متتالية ، فلم يجيبه سوى الصمت المطبق ..

صمت يجعلك تتساءل : ماذا حدث بالضبط ؟..

(*) حرب فيتنام : أعلن (نجو دن ديم) جمهورية (فيتنام) فى أكتوبر ١٩٥٥ م ، وعاونته (أمريكا) اقتصاديًا وعسكريًا ، وفى ١٩٦١ ، استولت قوات (فيت كونج) على ما يقرب من نصف (فيتنام) ، وحاولت (فيتنام) الجنوبية صد الهجوم ، بمساعدة القوات الأمريكية ، ولكنها فشلت ، ولاقى الأمريكيون هزيمة فادحة هناك .

ماذا أصاب الشاب ؟..

ولكن سؤالك يظلّ ضائعًا ، عبر موجات اللاسلكى بلا هدف .. وبلا جواب ..

* * *

عندما يواجه المرء خطرًا مباغتًا ، تنطلق كل طاقات جسده دفعة واحدة ، وتأتى ردود أفعاله غريزية سريعة ، ينسّقها المخ بأسلوب عجيب ، عجز عن تفسيره علماء المخ ووظائف الأعضاء ، حتى هذه اللحظة ..

وفى اللحظة التى انزلق فيها جسد الشاب ، وبدأ يهوى فى الفراغ ، من ارتفاع ثلاثة طوابق ، اندفعت يداه إلى الأمام فى حركة غريزية ، وتشبثتا بحافة الممر الأفقى ، الذى يقود إلى نظام تهوية الطابق الثالث بالكامل ..

وبكل قوته ، وغريزة البقاء فى أعماقه ، تيبّست أصابعه فوق الحافة ، وحمت جسده كله من السقوط المروّع ، وهو يرتطم بجدار الممر الرأسى فى عنف ..

ومع قوة الارتطام ، قفز جهاز اللاسلكى من حزامه ، واصطدم بالجدار ، ثم سقط من هذا الارتفاع ، وضرب قاع الممر بدوى عنيف ، خُيّل للشاب أنه تردّد فى المبنى كله ، وانتقل صداه إلى الشوارع المجاورة ، قبل أن يتلاشى ، ويضيع فى تلك الممرات المتشابكة ، التى بدت وكأنها بلا نهاية ..

ولثوان ، ظلّ الشاب معلّقًا بالحافة ، وهو يلهث فى شدة ، ثم اندفعت الدماء فى عروقه ، لتنقبض عضلاته ، ويرفع جسده إلى أعلى ..

وفى الظروف المعتادة ، كان هذا عملاً عاديًا ، أما الآن ، فقد شعر وكأن جسده أصبح يزن أضعاف أضعاف ما كان عليه ، حتى صار كتلة من الفولاذ ، تحتاج إلى ونش هائل لرفعها ..

ولكنه نجح ..

أخيرًا نجح ..

واسترخى جسده يلهث لحظات ، قبل أن يلقى نظرة متوترة على ساعة يده ، التى أشارت عقاربها إلى بقاء خمس دقائق فحسب ، من المهلة الممنوحة ..

وكان هذا يعنى أنه فشل فى إنقاذ الضحية الأولى ..

امتلأت نفسه بالحنق والمرارة ، ولكن هذا لم يمنعه من النهوض ، والتحرّك فى سرعة ، داخل ممر التهوية ، قبل أن يكمل حتى التقاط أنفاسه ، وهو يعدو تقريبًا ، على يديه وركبتيه ، عبر الممر ، حتى بلغ ساحة البيع ، فى الطابق الثالث ..

ولدقيقة أو يزيد ، راح يراقب المكان ، عبر الفتحات الضيقة فى سقفه ، التى تتم عبرها عملية تنقية الهواء ، من خلال ممرات التهوية ..

كان يشعر بالضيق ؛ لأنه فقد جهاز الاتصال ، إلا أن هذا لم يفتّ من عضده ، فقد اتخذ قراره بالقيام بالمهمة وحده ، مادامت الظروف تضطره إلى هذا ..

وحده ..

نعم .. لقد فعلها حتمًا من قبل ..

يومًا ما ، خاض عملية خطيرة وحده ..

شىء ما فى أعماقه يذكر هذا ..

ولكن لا وقت الآن لاستعادة الذكريات ، والنبش فى مقبرة الماضى ..

هناك مهمة ، لابد أن يبذل قصارى جهده للنجاح فيها ..

وبأى ثمن ..

فالنجاح هذه المرة ، يعنى مولده من جديد ..

إنه مرحلة بعث ، ينهض فيها من ماضيه ، وينطلق فى حاضره ومستقبله ..

وعلى الرغم من فقدانه لجهاز اللاسلكى ، ويقينه من أنه يؤدى المهمة منفردًا ، دون توجيه خارجى ، أزاح أحد مربعات التهوية من السقف ، وثبّت الحبل الذى يحمله على كتفه ، ثم وثب إلى قاعة البيع فى الطابق الثالث ، و ...

« يا للشيطان !.. »

انطلقت الصيحة من مسافة ثلاثة أمتار منه ، فاستدار نحوها فى سرعة ، ورأى فوهة مدفع آلى مصوّبة نحوه ، وخلفها أحد الإرهابيين ، وقد امتلأت ملامحه بتوتر عنيف ، وقفزت سبّابته إلى زناد مدفعه ..

ولكن الشاب قفز قفزة قوية مرنة ، لا يمكن وصفها إلا بأنها مذهلة ؛ فقد عبر بها الأمتار الثلاثة ، التى تفصله عن الإرهابى ،

وجسده يدور كله حول نفسه ، ثم يركل المدفع الآلى فى يده ، قبل أن تعتصر سبّابته الزناد ..

وعندما هبط على قدميه ، كان الإرهابى ينقضّ عليه فى غضب ، هاتفًا :

ـ إذن فقد بدأ أوغاد الشرطة تحركاتهم .

هوى الإرهابى على فكه بلكمة قوية ، ألقته إلى الخلف فى عنف ، فارتطم بكومة من الوسائد المطاطية ، جعلته يرتدّ سريعًا ، واستغلّ هو ارتدادته هذه ، ليلكم الإرهابى بكل قوته فى معدته ..

وعندما انثنى الرجل من أثر اللكمة ، عاجله بضربة أخرى كالقنبلة ، على مؤخرة عنقه ، ثم استقبل ذقنه بركلة عنيفة من ركبته ، تحطّم لها أنف الإرهابى ، الذى أطلق صوتًا أشبه بالخوار ، وحاول أن ينهض ، ملقيًا سبابًا ساخطًا ، كتمه الشاب بلكمة أخيرة ، امتزج صوت ارتطامها بفك الإرهابى بصوت أسنان تتحطّم ، قبل أن يستيقظ الرجل فاقد الوعى تمامًا ..

وفى سرعة ، جذب الشاب الإرهابى بعيدًا ، وانتزع حبل إحدى الستائر ، وراح يقيّده فى إحكام ، ثم ألقاه داخل أحد الدواليب ، وأحكم إغلاقه ، ووقف يدرس الموقف ..

كان أمامه طريقان للوصول إلى الطابق الخامس ، حيث يحتفظون بالرهائن ، إما أن يصعد إليه ، عبر السلم أو المصعد ، أو يهبط إليه من السطح .

ولكل من الطريقين متاعبه ومخاطره ..

فالصعود يجعله يواجه أربعة من الإرهابيين مباشرة ، مع وجود الرهائن ، بكل ما يحمله هذا من مخاطر ، والهبوط من السطح يحتاج أوّلاً إلى الوصول للسطح ، الذى يقف فوقه اثنان من الإرهابيين مع بعض الرهائن ، والسيطرة على الموقف هناك ، بما يحمله من مخاطر أيضًا ..

ولكن الوقت يمضى ، وعليه أن يحسم موقفه ..

وبأقصى سرعة ..

* * *

« مراقب الأدوار لم يظهر ، منذ خمس دقائق .. » ..

نطق (رفعت) هذه العبارة فى اهتمام بالغ ، وهو يراقب المبنى التجارى بمنظاره المقرّب ، فسأله (نسيم) :

ـ وماذا الذى يعنيه هذا فى رأيك ؟

أجابه فى شىء من الحماس :

ـ أن (فاى) نجح فى الوصول إلى هذه النقطة ، وتخلّص من مراقب الأدوار بشكل ما .

صمت (نسيم) لحظة ، وهو يزن الأمر فى رأسه ، قبل أن يسأل :

ـ لماذا لم يعد يستجيب لنداءاتنا اللاسلكية إذن ؟

أجاب (رفعت) ، وهو يواصل المراقبة فى اهتمام :

ـ ربما أصيب جهاز اللاسلكى معه بعطب ما .

هزّ (نسيم) كتفيه ، قائلاً :

ـ ربّما .

ثم عاد يستطرد :

ـ ولكن كل شىء فى المبنى يسير على الوتيرة نفسها ، باستثناء غياب مراقب الأدوار ، ومن الواضح أن الأمريكيين سيستجيبون لمطالب الإرهابيين ، فلست أرى ما يشير إلى العكس .. لا توجد فرق هجوم ، أو برامج حصار .. لقد أبعدوا حتى القنّاصة ، من أسطح المبانى المجاورة ، بناءً على أوامر هؤلاء الأوغاد .

صمت (رفعت) طويلاً ، قبل أن يقول :

ـ أنا واثق من أن (فاى) هناك ، فى مكان ما ، ولكننى لست أدرى أين ستتجه ضربته القادمة ؛ فقد كان من المفروض أن نرشده نحن إلى نقطة الهجوم المثالية ، بناءً على مراقبتنا من هنا .

ألقى (نسيم) نظرة إجمالية على المكان ، ثم غمغم :

ـ بالنظر إلى أنها عمليته الأولى ، أعتقد أنه سيهاجم الموجودين فى الطابق الخامس مباشرة ؛ فالوقت يمضى معه فى سرعة ، ثم إن أية معركة على السطح ستثير جلبة محسوسة ، تكفى لتفجير الموقف تمامًا ، فى الطابق الخامس .

رفع (رفعت) المنظار المقرّب عن عينيه ، وهو يسأله :

ـ وماذا كان من الممكن أن تفعل ، لو أنك فى مكانه ؟

أشار (نسيم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ كنت سأهاجم الإرهابيين على السطح أوّلاً ، وبأسلوب مباغت سريع ، يحسم الموقف فى لحظات ، دون أن يثير الآخرين .

صمت (رفعت) طويلاً هذه المرة ، ثم هزّ رأسه ، وقال فى حزم :

ـ فلنركز على مراقبة السطح إذن .

كان بقوله هذا يراهن بسمعته نفسها على ورقة واحدة .. ورقة تحمل الرمز (فاى) ..

* * *

ألقى أحد الإرهابيين على السطح نظرة على ساعته ، وهو يقول ساخرًا :

ـ (بيتر) لم يطق صبرًا ، ونسف جمجمة الرهينة الأولى ، قبل الموعد المحدود بعشر دقائق كاملة .. تُرى متى يذبح الثانية ؟

انتفض الرهائن الثلاثة أمامه فى ذعر ، وكانوا امرأتين وفتاة صغيرة ، فى الثالثة عشرة من عمرها ، راحت تبكى فى ارتياع ، فجذبها الإرهابى الثانى من شعرها الأشقر الطويل فى قسوة ، وهو يقول :

ـ ما رأيك فى هذه الصغيرة ؟.. دعنا نلق بها من السطح مباشرة ، عندما يحين الموعد .

صرخت الفتاة فى ذعر وألم ، فقهقه الأوّل ضاحكًا ، وقال :

ـ فكرة رائعة .. سيروق لى أن أسمع صراخها ، وهى تهوى فى الفضاء ، قبل أن ترتطم بالأرض ، وتتهشّم كل عظمة فى جسدها .

بكت الفتاة أكثر وأكثر ، فقالت إحدى المرأتين فى حنق :

ـ هل تشعران باللّذة لما تفعلانه ؟.. هل تجدان متعتكما فى إذلال هذه المسكينة ؟

صرخ أحدهما فى وجهها :

ـ اصمتى يا امرأة ، وإلا انتزعت فروة رأسك ، كما كان الهنود الحمر يفعلون قديمًا .

تراجعت المرأة فى ارتياع ، فى حين قهقه هو فى مرح ، مستطردًا :

ـ حاول أن تتخيّل شكلها ، بدون هذا الشعر الأشقر .

قالها وانطلق يضحك ، ويضرب الأرض بقدميه كالأطفال ، حتى انبعث صوت صارم ، من جهاز اللاسلكى الذى يحمله ، قائلاً :

ـ ماذا يحدث عندكما ؟

ارتبك الرجل ، وأعاد قدميه إلى موضع الوقوف ، وتلاشت ضحكته ، فى حين أجاب زميله عبر الجهاز ساخرًا :

ـ اطمئن يا (بيتر) .. (هوز) كان يمرح قليلاً .

أجابه (بيتر سوان) فى صرامة :

ـ مُرْه بالتوقّف عن هذه السخافات .. عبث الأطفال هذا قد يفسد خطتنا كلها .. ما الموقف عندكما ؟.. هل تريان أية قنّاصة فى الجوار ؟

قال الرجل ، وهو يدير عينيه فيما حوله :

ـ مطلقًا .. من الواضح أنهم استجابوا لمطالبنا حتى الآن ، فالمنطقة نظيفة تمامًا .

أجابه (سوان) ، فى شىء من الشراسة :

ـ ولكن الهليوكوبتر والنقود لم يصلا بعد أيها الغبى .

ثم أنهى الاتصال ، وهو يشعل سيجارته ، وينفث دخانها فى عصبية ، جعلت أحد رجاله يقول :

ـ هل تسير الأمور على ما يرام يا مستر (سوان) ؟

أجابه (سوان) ، وهو ينفث دخان سيجارته :

ـ ستظلّ تسير على ما يرام ، مادمت تثبت لهم دائمًا أن تهديداتك ليست جوفاء .

قالت الممثلة (ريتا) فى حنق :

ـ وهل وسيلتك إلى هذا هى إراقة الدماء ؟

رمقها بنظرة صارمة ، قبل أن يجيب :

ـ ألا تروق لك وسائلنا ؟

ثم وثب فجأة ، يجذبها من شعرها فى قسوة ، ويهوى على وجهها بصفعة عنيفة ، صارخًا :

ـ ألا تروق لك ؟

صرخت فى ذعر ، وصاحت فى ألم :

ـ ماذا تفعل أيها المجنون ؟

صفعها مرة أخرى فى غضب ، صارخًا :

ـ إياك أن تصفينى بالجنون .. هل سمعت ؟.. إياك ؟

اندفع السفير المصرى ، محاولاً الدفاع عنها ، وهو يقول فى حدة :

ـ لا تصفع أبدًا امرأة .

التفت إليه (سوان) فى غضب هائل ، ودفع (ريتا) جانبًا فى غلظة ، وهو يقول له فى شراسة :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟.. ما الذى تنصحنى به ؟

شدَّ السفير المصرى قامته فى اعتداد وشموخ ، وهو يجيب :

ـ ليس من الرجولة أن تصفع امرأة .

مال (سوان) نحوه فى حدة ، قائلاً :

ـ حقًّا ؟!

ثم جذبه من سترته فى عنف ، وألصق فوهة مسدسه بعنقه ، وهو يصرخ فى وجهه :

ـ هل يمكنك تكرار نصيحتك الآن ؟.. هه الشجاعة لتفعل ؟!.. هل ترى كيف ابتلعت الموقف بسرعة ، عندما شعرت بالفوهة الباردة تلتصق بعنقك ؟

أجابه السفير فى شجاعة صارمة :

ـ الشىء الوحيد الذى ابتلعته هو سخافاتك ، أما ما أراه أمامى ، فهو مجرَّد إرهابى يعانى عقدة نفسية ، تجعله يتصوَّر أنه سيصبح أعظم رجل فى العالم ، عندما يمسك سلاحًا .

احتقن وجه (سوان) فى شدة ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت ترغب فى الانتحار .

أجابه السفير بسرعة :

ـ بل أومن بأنه مادام الموت ضرورة لا فرار منها ، فمن العار أن يموت المرء جبانًا .

حدَّق (سوان) فى وجهه لحظة ، ثم تراجع قائلاً فى سخرية :

ـ عظيم .. أنت لست مجرّد سفير لدولة من دول العالم الثالث .. أنت فيلسوف أيضًا .

ثم صرخ فجأة :

ـ ولكننى سأشعر بمتعة رائعة ، عندما تحين لحظة قتلك .

واندفع نحو النافذة ، صارخًا :

ـ أنتم أيها الأوغاد بأسفل .. لقد اتخذت قرارى باختصار المهلة إلى نصف الساعة فقط ، بدلاً من ساعة كاملة .

قالها ، واستدار ينظر إلى السفير المصرى فى سخرية وشماتة ؛ دون أن يدرى أن قوله هذا لم يترك لـ (فاى) سوى ثلاث عشرة دقيقة ..

فقط ..

* * *

ألقى الإرهابى العنيف فوق السطح ، نظرة طويلة على ساعته ، قبل أن يقول للفتاة الصغيرة ساخرًا ، وهو يعبث بخنجره :

ـ استعدّى يا صغيرتى .. سأذبحك بعد أقل من ربع الساعة .

أمسكت المسكينة رقبتها فى ارتياع ، وهى تبكى فى حرقة ، هاتفة :

ـ لا تذبحنى .. أرجوك .. أرجوك .. لا أريد أن أموت .. أرجوك .

قهقه ضاحكًا ، وهو يستمتع بتوسلاتها ودموعها ، فقالت السيّدة فى توتر :

ـ لا تخافى يا صغيرة .. إنه يرهبك فحسب .

التفت إليها الرجل فى غضب ، هاتفًا :

ـ أرهبها فحسب .. يبدو أنك لا تحسنين فهم الأمور أيتها الحقيرة .

وجذبها من شعرها فى حدة ، جعلتها تطلق صرخة ألم مذعورة ، وهو يرفع خنجره نحو رأسها ، مستطردًا :

ـ ولهذا تستحقين درسًا قاسيًا .

صرخت المرأة فى رعب ، وأطلّت من عينى الإرهابى نظرة قاسية متشفية ، وهو يهمّ بسلخ فروة رأسها ، و ...

وفجأة وثب (فاى) عبر فتحة المصعد العلوية ، وألقى خنجره فى براعة ، ليغرسه فى قلب ذلك الإرهابى الحقير ، الذى أطلق شهقة ألم ودهشة ، وسقط خنجره من يده ، فى نفس اللحظة التى استدار فيها زميله نحو الشاب ، فى سرعة تليق بالمحترفين ، وهو يهتف :

ـ يا للشيطان !

وبسرعة ، استلّ (فاى) مسدسه ، ولكن ذلك المحترف رفع فوهة مدفعه الآلى نحوه بسرعة أكبر ، و ...

وكانت مواجهة بالغة السرعة والعنف ..

مواجهة المحترفين .

* * *

٩ـ اقتحـام..

لم يكن الشاب يدرك ، أو يتصوّر ، أن خصمه محترف إلى هذا الحد ، فقد فوجئ به يصّوب إليه فوهة مدفعه الآلى فى سرعة مذهلة ، قبل حتى أن يرفع هو مسدسه فى وجهه ..

وبدا له أنه خسر المواجهة هذه المرة ..

ولكن فجأة ، انثنى الإرهابى إلى الخلف ، وجحظت عيناه فى شدة ، ثم سقط منه مدفعه الآلى ، وبرزت بقعة دموية فى جبهته من الأمام ، وهو يترنّح ، قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة ..

ولثوان معدودة ، حدّق الشاب فى جثة الإرهابى فى دهشة ، دون أن يفهم ما حدث ..

ولم يكن وحده الذى يشعر بهذا ..

فعلى سطح مبنى قريب ، ارتفع حاجبا الضابط (مارش) فى دهشة عارمة ، وهتف :

ـ من أين أتى هذا الشخص ؟!.. ما الذى يحدث بالضبط ؟

ثم التقط جهاز اللاسلكى الخاص به ، وهتف عبره :

ـ أخبرونى ماذا يحدث هنا ؟!.. ما الذى تفعلونه بالضبط ؟

ولم يكد يتلقّى الجواب ، حتى اتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، والتفت إلى مساعده ، قائلاً :

ـ إنهم لم يفعلوا شيئًا حتى الآن .

ثم عاد يحدّق فى السطح المقابل ، مستطردًا :

ـ ماذا يحدث هناك إذن ؟

أما فى تلك الشقة ، التى تواجه المتجر بالضبط ، فقد خفض (رفعت) بندقيته ، المزوّدة بمنظار مقرب قوى ، و (نسيم) يهتف به :

ـ إصابة رائعة يا رجل .. أنا نفسى لم يكن بإمكانى أن أفعل ما هو أفضل .. كيف توقّعت أن الشاب سيختار السطح ؟

أجابه (رفعت) فى انفعال :

ـ كنت أعلم أن (فاى) أكثر ذكاءً مما تتوقعون جميعًا .

وأعاد منظاره المقرب إلى عينيه ، مستطردًا :

ـ المهم ألاّ يضيع لحظة واحدة ، فقد أعلن عن وجوده ، وأخشى أن يقوم أحد حمقى (التليفزيون) الأمريكى بتصوير ما يحدث ، فتصل الصورة مباشرة إلى الإرهابيين ، عبر أى جهاز (تليفزيون) بالمبنى .

نطقها فى نفس اللحظة ، التى تحرّك فيها الشاب فى سرعة ، وثبّت طرف الحبل الذى يحمله فى بروز واضح فى السطح ، والسيّدة تهتف به فى سعادة :

ـ لقد أنقذت حياتنا .. أشكرك .. أشكرك كثيرًا .

أرادت أن تطبع قبلة امتنان على وجنته ، إلا أنه ازاحها فى رفق ، قائلاً :

ـ فيما بعد يا سيّدتى .. فيما بعد .

وأطلّ من السطح ، ليقيس المسافة بعينيه ، ما بين الحافة ونوافذ الطابق الخامس ، ثم أمسك طرف الحبل ، فى المسافة التى قدّرها مسبقًا ، وأشار للسيدتين والفتاة ، قائلاً فى حزم :

ـ تراجعن .

قالها ، ووثب من السطح ، على نحو جعل الفتاة تطلق شهقة ارتياع ، والمرأتين تصرخان فى هلع ..

ولكنه أثبت براعته ودقّته ، على نحو مدهش ..

لقد جاءت قفزته متقنة ومدروسة إلى حد مذهل ، فلم يكد الحبل يرتطم بحافة السطح ، حتى جذب جسده إلى الداخل فى عنف ، جعله يظهر أمام نافذة الطابق الخامس ، ويقتحمها على نحو مباغت قوى ..

وعلى الرغم من أن الرجال الأربعة هناك ، كانوا محترفين بحق ، إلا أن ذلك الاقتحام المدهش المفاجئ أصابهم بصدمة عنيفة ، سمحت للشاب بالقفز أرضًا ، والتدحرج فى مهارة ، وإطلاق النار على رأس أحدهم ، وعلى صدر الثانى ، قبل أن يثب واقفًا على قدميه ، ويطلق رصاصة ثالثة ، اخترقت عنق الثالث .. ولكن (بيتر سوان) لم يكن بالرجل السهل ..

لقد كان أوّل من استوعب الموقف ، وقفز خارج نطاق المفاجأة ، فأطلق الرصاص مرتين ، محاولاً إصابة الشاب ، إلا أن الحركة السريعة لهذا الأخير أفسدت محاولته فى المرتين ، فما كان منه إلا أن جذب إليه (ريتا) من شعرها فى عنف وقسوة ، وألصق مسدسه بعنقها ، فى نفس اللحظة التى استدار إليه الشاب فيها ، وهو يصوّب نحوه مسدسه ، فصرخ (بيتر) فى عصبية عنيفة :

ـ حركة إضافية ، وأنسف رأسها الجميل بلا تردد .

توقّف الشاب ، مصوّبًا إليه المسدس فى حذر ، فى حين هتف السفير :

ـ اتحتمى بامرأة أيها الحقير .

صاح به (بيتر) فى حدة :

ـ اخرس يا رجل ، وإلا أخذتك بدلا منها .

تقدّم نحوه السفير ، قائلاً :

ـ فليكن .. أنا أوافق .. خذنى بدلاً منها .

صرخ (بيتر) :

ـ لا أريد بطولات زائفة .. تراجع وإلا قتلتكما معًا .

بدا الغضب على وجه السفير ، وصرخت (ريتا) :

ـ لا تستفزوه .. لا تحاولوا استفزازه .. تذكّروا أننى فى قبضته .

انعقد حاجبا الشاب فى صرامة ، وهو يقول فى اقتضاب :

ـ اتركها .

أطلق (بيتر) ضحكة عصبية ساخرة ، قبل أن يقول :

ـ أتركها ؟!.. يا له من قول ساذج سخيف !.. اترك أنت مسدسك يا فتى ، وإلا علمتك كيف تنسف رءوس السخيفات أمثالها .

لم يتحرّك الشاب قط ، أو يختفى انعقاد حاجبيه الغامض ، ولكنه لاحظ تألّقًا غير طبيعى فى عينى (بيتر سوان) ، وهو ينظر إلى نقطة ما خلفه ..

إلى حيث المصعد ..

ثم فجأة ، فهم معنى هذا التألق ، فانحنى فى سرعة ، واستدار يطلق النار نحو المصعد ..

أو نحو ذلك الإرهابى ، الذى ترك موقعه عند باب المتجر ، وصعد ليستطلع سبب دوى الرصاصات فى الطابق الخامس ..

ولكن الرصاصة لم تصب الرجل فى مقتل ..

لقد اخترقت ذراعه فحسب ..

وعندما أطلق الشاب رصاصته الثانية ، التى اخترقت رأس الرجل مباشرة ، دفع (بيتر) (ريتا) بعيدًا ، وأطلق النار بدوره على الشاب ..

ولشدة انفعاله وتوتره ، لم تصب رصاصته هدفها بالضبط ، وإنما اخترقت كتف الشاب ، الذى استدار فى سرعة ، على الرغم من إصابته ، وصوّب مسدسه إلى (بيتر) ..

ولكن الرجل كان قد استعاد وضعه الدفاعى بسرعة ..

لقد أحاط عنق السفير بساعده هذه المرة ، وهو يصرخ فى الشاب :

ـ حاول .. حاول أن تضغط الزناد ، وسأقتله أمام عينيك بلا تردد .

نهض الشاب فى بطء ، وصوّب مسدسه إلى رأس (بيتر) فى إحكام ، وهو يقول بالعربية :

ـ هل يمكنك المخاطرة يا سيادة السفير ؟

اتسعت عينا السفير فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ أأنت مصرى ؟!

وصاح (بيتر) فى عصبية :

ـ بأية لغة تتحدثان ؟

تجاهله الشاب تمامًا ، وهو يقول للسفير :

ـ سأعدّ حتى ثلاثة ، ثم تزيح رأسك بسرعة إلى اليسار .. هل يمكنك هذا ؟

أجابه السفير ، والدهشة لم تفارقه بعد :

ـ بالتأكد .

قال الشاب فى هدوء :

ـ واحد .. اثنان ..

وصرخ (بيتر) ، وهو يجذب إبرة مسدسه فى عصبية :

ـ تحدّثا بالأمريكية ، أو ...

قبل أن يتم كلماته ، قال الشاب فى حزم :

ـ ثلاثة .

ولم يكد ينطقها ، حتى أزاح السفير رأسه بسرعة إلى اليسار ، ليكشف رأس (بيتر) ، وضغط الشاب زناد مسدسه ، و ...

وكانت الإصابة محكمة تمامًا ..

وجحظت عينا (بيتر سوان) فى شدة ، وسقط مسدسه من يده ، وأفلت عنق السفير ، وهو يتراجع بثقب بين عينيه ، حتى ارتطم بالنافذة المحطّمة ، وهوى من ارتفاع خمسة طوابق ..

ومع لحظة سقوطه ، صرخ الضابط (مارش) فى انفعال :

ـ اقتحموا المكان .

ولم يعد هناك سوى إرهابى واحد ،استسلم على الفور ، بعد أن أدرك أن رفاقه كلهم انتهوا ، مما جعل عملية الاقتحام سالمة تمامًا ، وعندما وصل رجال الشرطة الأمريكيون إلى الطابق الخامس ، كان الرهائن كلهم بخير ، وخاصة السفير المصرى ، الذى حمل وجهه ابتسامة فخر عريضة ، جعلت الضابط (مارش) يسأله فى حيرة :

ـ قل لى يا سيادة السفير : ما الذى يملأ نفسك بالسعادة إلى هذا الحد ؟

أجابه السفير فى هدوء :

ـ لقد أنقذتمونا .. أليس كذلك ؟

تطلّع إليه (مارش) لحظات فى شك ، ثم أشار إلى رسم كبير على الجدار ، لشكل بيضاوى ، يقطعه خط رأسى ، وسأله :

ـ وماذا عن هذا الرمز ؟.. ما الذى يعنيه ؟

هزّ السفير كتفيه ، وهو يجيب :

ـ ومن أدرانى ؟

قالها ، وابتسامته تتسع ، وتمتلئ بمزيد من الفخر والاعتزاز ، فهو لن ينسى أبدًا تلك الكلمات ، التى سمعها من الشاب ، قبل أن يختفى تمامًا من المكان :

ـ مع تحيات (مصر) ، والمخابرات المصرية يا سيادة السفير .

لحظتها شعر أنه من الطبيعى أن يسرى الفخر فى عروقه .. يكفى أنه سفيرها ..

سفير (مصر) .

* * *

« لقد فعلتها يا رجل .. فعلتها .. ياللروعة !.. لم أكن أتوقّع هذا أو أتخيّله قط .. » ..

هتف (نسيم) بالعبارة فى سعادة بالغة ، فى حين ألقى (رفعت) جسده على أقرب مقعد إليه ، ولهث وكأنه يعانى انفعالا شديدًا ، وهو يجيب :

ـ نعم .. لقد فعلها .. حمدًا للّه .. حمدًا للّه .

كان قد انتزع منذ لحظات ، تلك الرصاصة التى انغرست فى كتف الشاب ، وضمّد جرحه فى مهارة ، تعلّمها فى أثناء مواجهاته السابقة ، فرفع عينيه إليه ، وابتسم قائلاً :

ـ وأنت أيضًا فعلتها يا فتى .. لقد اجتزت ذلك الخيط الفاصل ، ما بين الهاوى والمحترف .

نهض الشاب فى بطء ، قائلاً :

ـ كانت هناك أخطاء .

أجابه (نسيم) فى سرعة :

ـ جلّ من لا يخطئ .. لا يوجد عمل متكامل قط .. المهم ألا تؤدّى الأخطاء إلى الفشل ..

ثم ابتسم ، ورّبت على ظهر الشاب ، مستطردًا :

ـ ولكننى أعترف أنك موهوب فى هذا المجال .. لقد أحسن (رفعت) الاختيار حقًا ، وأراهنك على أنه يشعر الآن بالفخر .. أليس كذلك يا (رفعت) ؟

وتطلّع إلى زميله ، الذى دفن رأسه بين كفيه ، ولاذ بالصمت تمامًا ، على نحو جعله يكرر :

ـ أليس كذلك ؟

ظلّ (رفعت) جامدًا فى هذا الوضع لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يرفع وجهه إليهما ، ويقول بصوت حمل طنًا من التأثّر ، الذى فاضت به عيناه :

ـ بلى .

بدا لحظة أنه سيكمل عبارته ، إلا أنه لم يلبث أن توقّف ، وضمّ شفتيه فى قوة ، وكأنما يخشى أن يغلبه التأثّر ، فران على المكان صمت طويل ، بعد أن غلب تأثره ، قائلاً :

ـ لقد أثبت (فاى) قدراته ، واستعداده لخوض المعارك بمفرده .

تطّع إليه الشاب لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى خفوت ، وبلهجة أشبه بالتساؤل :

ـ إنها ليست المرة الأولى ، التى أفعل فيها هذا .

غاص كل منهما فى عينى الآخر لحظات ، ثم أجاب (رفعت) :

ـ نعم .. إنها ليست المرة الأولى .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، واعتدل على مقعده ، قبل أن يضيف :

ـ لهذا ينبغى أن تستعد .

سأله الشاب فى اهتمام :

ـ أستعد لماذا ؟

صمت (رفعت) لحظة أخرى ، ثم أجاب فى حزم :

ـ للعودة إلى (مصر) .

وكانت مفاجأة عنيفة بالفعل ..

* * *

عقد رئيس الشرطة حاجبيه ، وهو يهتف فى وجه الضابط (مارش) مستنكرًا :

ـ مصرى ؟!.. هل فقدت عقلك يا رجل ، أم أنك تعانى نوبة هذيان ؟! .. مستحيل أن يكون الشخص الذى فعل هذا مصريًا !.. مستحيل !.. مستحيل !

زفر (مارش) فى توتر ، وهو يقول :

ـ ولكن كل شىء يؤكد هذا يا سيّدى .. الشهود قالوا : إنه تحدّث مع السفير المصرى بلغة لا يعرفونها ، أصابت السفير نفسه بالدهشة ، ثم إن أحد الشهود من أصل إيرانى ، ويمكنه تعرّف اللغة العربية بسهولة .

قال رئيس الشرطة فى حدة :

ـ لماذا ينكر السفير نفسه هذا إذن ؟

أجابه (مارش) فى ضيق :

ـ من الطبيعى أن يفعل هذا ، فهو رجل دبلوماسى ، ويعرف جيدًا أنّ أى إجراء ، يقوم به مواطنه ، على أرض أمريكية ، دون الرجوع إلى السلطات ، يعد أمرًا غير قانونى ، ولا يمكنه الاعتراف به قط .

قال رئيس الشرطة فى حنق :

ـ ونحن لا نستطيع إجباره على تغيير أقواله هذه .

لم يجد (مارش) ما يقوله ، فقلب كفيه مستسلمًا ، مما جعل رئيسه يقول :

ـ فى هذه الحالة أنصحك بنسيان الأمر كله .. المهم أنه تم القبض على أحد الإرهابيين ، والقضاء على الباقين ، ولن يضيرنا أبدًا أن ينسب هذا إلينا .. أليس كذلك ؟

أومأ (مارش) برأسه ، مغمغمًا :

ـ بلى .. لن يضيرنا هذا .

ولكن عقله لم يستطع أن يهدأ أبدًا ، وهو يبحث عن تفسير لتلك العلامة ، التى زيّنت الحائط فى المبنى التجارى ..

علامة (فاى) ..

* * *

« لماذا فعلتَ هذا ؟.. »

قالها (رفعت) للشاب ، فى شىء من الحنق ، وهما يقفان مع (نسيم) ، فى مطار (نيويورك) ، فسأله الشاب فى حيرة :

ـ فعلت ماذا ؟..

قال (رفعت) فى صرامة غاضبة :

ـ لماذا تركت علامتك على الجدار ؟

صمت الشاب لحظات ، قبل أن يهزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ لست أدرى .. أردت أن أتركها هناك فحسب .

أجابه (رفعت) فى حدة :

ـ بل أردت أن تزهو بانتصارك .. أردت أن تعلن للعالم كله أنك صاحب الفضل فى هزيمة الأشرار .. أليس كذلك ؟

تمتم الشاب فى حرج :

ـ ليس بالضبط ، ولكن ..

قاطعه (رفعت) فى عصبية :

ـ هناك أمر آخر ينبغى أن تتعلّمه ، فى عالم المخابرات يا فتى .. إننا نعمل دائمًا فى الخفاء ، والعمليات الوحيدة التى تعلن عن نفسها فى عالمنا ، هى العمليات الفاشلة ، أو التى مضى عليها ردح من الزمن ، أما العمليات الناجحة ، فتبقى عادة طى الكتمان .. ولا مجال للزهو قط فى عالمنا .. إما أن تعمل من أجل الوطن ، دون انتظار لشهرة أو أوسمة ، أو لا تعمل إطلاقًا .. هل تفهم ؟

تطلّع الشاب إلى عينيه لحظات ، ثم أجاب :

ـ نعم .. أفهم .

لم ينبس (نسيم) بحرف واحد ، طوال حديث زميله ، فقد كان يدرك جيدًا أن السبب الرئيسى لعصبيته ، هو أنه يؤدى واجبه ، على حساب مشاعره وانفعالاته ..

إنه يميل كثيرًا للشاب ، ويعتبره بمثابة ابن له ، ويتمنى لو أبقاه دومًا إلى جواره ، إلا أن واجبه يحتم عليه إعادته للوطن ، حتى يصبح أحد رجال العمليات الخاصة ..

وهذا الصراع يمزّقه فى شدة ..

والعجيب أن مشاعر (رفعت) تبدّلت فى سرعة ، من العصبية والغضب إلى شىء من الحنان ، وهو يمسك ذراع الشاب ، قائلاً :

ـ عندما نفترق الآن ، لا تتصوّر أبدًا أننى أتخلّى عنك ، فلقد انتهى دورى معك ، والمفروض أن تنتقل إلى مرحلة جديدة من التدريبات .. مرحلة لا يصلح لها سوى (نسيم) .. أو (قلب الأسد) ، كما نطلق عليه .. وعلى يديه ستتلقّى عشرات المعارف والمعلومات الضرورية ، فى عالم المخابرات .. استمع إليه جيدًا ، وأطع كل أوامره .

ارتفع فى هذه اللحظة النداء الأخير ، الذى يدعو ركاب طائرة (مصر للطيران) ، المتجهة إلى (القاهرة) ، للتوجّه إلى الطائرة ، فألقى (رفعت) نظرة أخيرة على الشاب ، وقال :

ـ هيّا .. اذهب مع (نسيم) .. إنها تنتظرك وتحتاج إليك .

قال الشاب فى حيرة :

ـ من هى ؟

أجابه فى تأثّر شديد :

ـ (مصر) يا (فاى) .. (مصر) تنتظر خدماتك .

انتفضت عروق الشاب ، وهو يقول :

ـ رقبتى فداء لها .

تصافح الثلاثة فى حرارة ، وبقى الشاب لحظات ، متطلّعًا إلى عينى (رفعت) فى صمت ، حتى قال له هذا الأخير فى عصبية :

ـ هيا .. اذهب .. الطائرة لن تنتظرك .

وعندما ارتفعت الطائرة ، عائدة إلى الوطن ، وعلى متنها (نسيم) والشاب ، كان (رفعت) يدرك أنها ربما تكون آخر مرة يراه فيها ، طبقًا لنظم عالم المخابرات ، ولكنه واثق من أن هذا الشاب سيضيف الكثير والكثير إلى هذا العالم الغامض ..

وفى صمت ، وربما لأوّل مرة فى حياته ، ترك (رفعت) تأثّره يغلبه ، وسمح لدموعه أن تسيل فى بطء على وجهه ، وهو يتابع الطائرة ، التى غابت وسط السحب ، تاركة خلفها خيطًا من الدخان ، بدا وكأنه يرسم مع السحب شكلاً لرمز مألوف ..

رمز القيمة الخالية ..

(فاى) .

* * *

[تمت بحمد الله]

١ ـ حسان بن ثابت .
٢ ـ الإنزيمات .
٣ ـ أورانجوتان .
٤ ـ الأمازون .
٥ ـ الزئبق .
٦ ـ الشلال .
٧ ـ البندقية .
٨ ـ الأمبير .
٩ ـ لورانس أوليفيه .
١٠ ـ البطاطس .
١١ ـ القلب .
١٢ ـ البلايستوسين .
١٣ ـ البحيرة .
١٤ ـ أركيو باتريكس .
١٥ ـ الحسن البصرى .
١٦ ـ البحر الأحمر .
١٧ ـ البنجر .
١٨ ـ بروسيا .
١٩ ـ برتوكول .
٢٠ ـ لويس باستير .

★ ★ ★

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

151059

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

بالدم .. (قصة قصيرة) ـــــ ٥

اختبر معلوماتك ـــــ ١٢

الزهرة .. (قصة قصيرة) ـــــ ١٩

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل (دراسة) ـــــ ٢٦

الصدمة .. (قصة كاملة) ـــــ ٥٣

من وراء النجوم (دراسة) ـــــ ١٠٣

قصة العدد

البعث ـــــ ١١٧

عزيزى القارئ ـــــ ٢٥٢

حلول اختبر معلوماتك ـــــ ٢٢٧

الثمن فى مصر ١٥٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم